مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جناحها الريح... وغيمة ماطرة

سيرة المرأة الغائبة

رواية

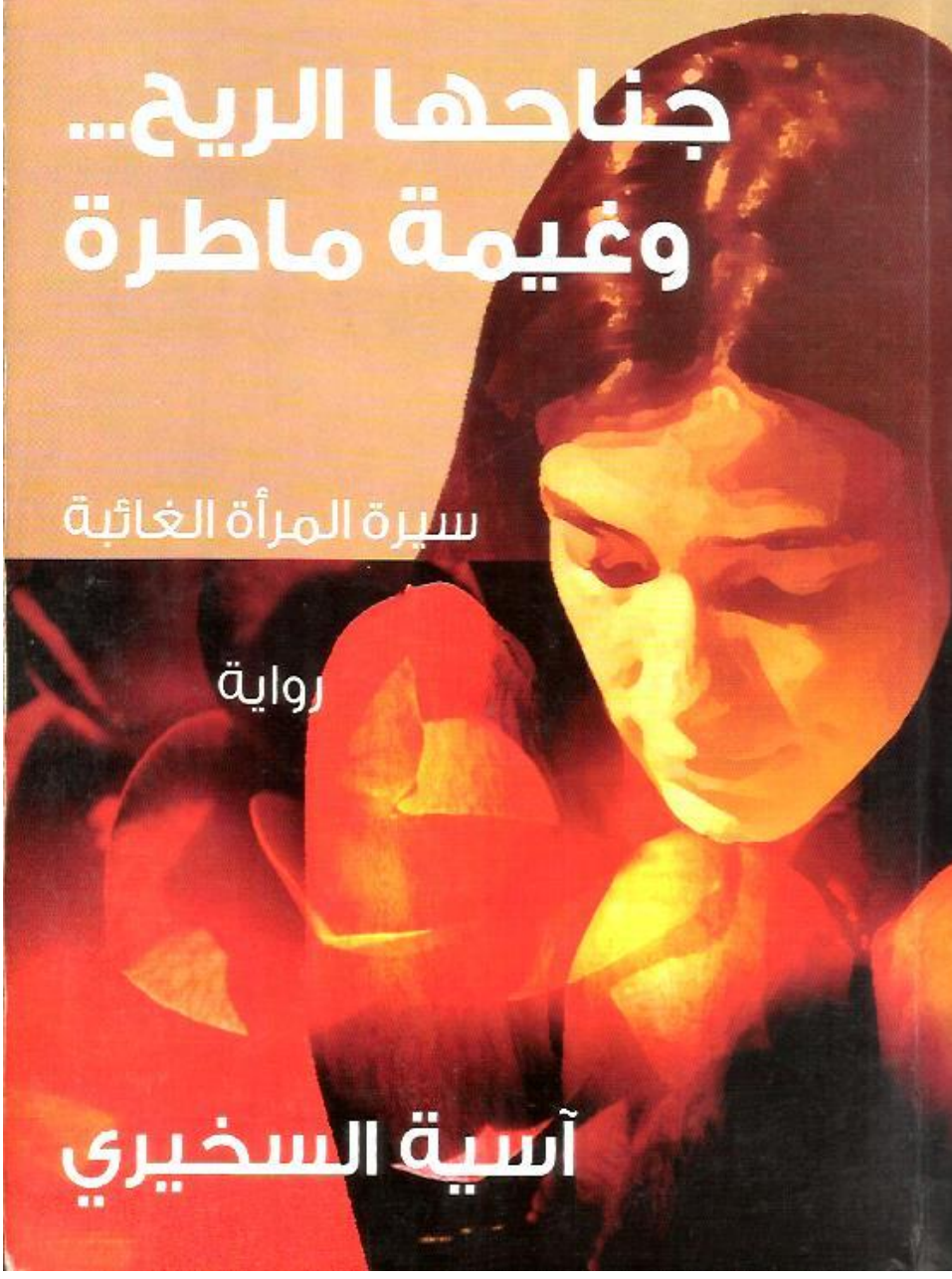

آسية السخيري

جناحها الريح ...وغيمة ماطرة

سيرة المرأة الغائبة

جناحها الريح... وغيمة ماطرة

سيرة المرأة الغائبة

آسية السخيري

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-113-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم - ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

المحتويات

بعد البدء ... ما دون النهاية 9

الفصل الأول

الأغنية الأولى 13

الفصل الثاني

الأغنية الثانية 59

الفصل الثالث

الأغنية الثالثة 113

"إذا متّ في المستقبل القريب، أو أصبت بالعجز التام فسيكون لي أن أقول إنني مزّقت نفسي بنفسي. الدنيا وأنا مزّقا كلاهما جسمي في صراع لم يكن من الممكن التغلب عليه".

فرانـــز كافكا

(ترجمة د. مصطفى ماهر)

بعد البدء ...
ما دون النهاية

آن لـــك أن تتشظّي. أعرف أنك تتشظّين نيرانا كاوية وحمما صـــاهدة لكن شتاتك حينها يحيل على الحياة والحبّ ويقهر الخمول والسكينة اللذين يجعلان الموت يرفرف في الفضاء بجناح من حديد.

ياحـــزني الأرعن... أي إله عادل لايخجل من أن يكون شاهدا على كل هذا الضيم؟

الحكايـــة لم تنته بعد وهي ربما لن تنتهي أبدا لذلك تتعنّت عليّ بدايـــتها. نحن لانستطيع أن نمسك بدايات الأشياء بطرف ما دامت نهاياتها عصي علينا أن نعرفها ومن هنا تأتي المأساة خببا.

أنـــا ســـأبدأ رغما عن كل شيء حتى وإن كانت المسرحية لم يســـدل بعد ستار الكآبة على فصولها الدامية. لقد تعلّمت وإن بعد لأي أن أخلق من الأشلاء ما به أخرس هذه الرغبة العنيفة في التدمير والتي تتأجج بداخلي بركانا عتيّا لايخمد. أجمّع الأشياء المبعثرة بعزيمة قصـــوى فأبعـــث فيها روحا زكيّة ترفرف وأنحت بين حوانيها قلبا نابضـــا تسري في شرايينه دماء شهوة حمراء آثمة مقدّسة، وأمضي في تكويني لا ألوي على معتاد مجّه التكرار والابتذال.

أنـــا امرأة تشدني التفاصيل الصغيرة. تأتيني من الشتات القصي فأحـــاول ترمـــيمها دون أن أسعى إلى الرد على سؤال طالما أرهقني وأرّقـــني: ماذا سأجني من هتك ستر الشظايا؟ ألم يكن أجدى لها أن

أدعهـــا تتمتّع بتجوالها الحرّ في الفضاءات الرحيبة؟ لماذا أحاول دائما خيانة جمال تشظي الأشياء الذي أصنعه بيدي هاتين؟

لاشـــيء يهمّ الآن. ما يهمني فقط هو أن أجمّعها بطريقتي أنا ووفق رؤيتي المغايرة دائما. أنا لاأتبجّح أبدا إلاّ إذا كان جسد ما كوّنـــته غريبا مثلي، لذلك أحرص دائما على أن يأتي أوّله غامرا وآخره بعيدا... بعيدا... نائيا لايسعه المدى ولاتحيط به الحواجز. نحـــن جمـــيعا نشـــترك في أشياء متعدّدة هي على كثرة تواردها وتناســـخها تضحي عادية إلى درجة الإسفاف ومعها تصير همومنا المتوحّشة لامعنى لها، لذلك فقط أنا تعلّمت من الذين أعشق فيهم صمتهم الصاخب أن لا أجأر بغير حبي لما لم يوجد، وكنت دائما أتـــوق إلى أن أراه حقـــيقة تضحك كالأطفال بين يديّ. فيما لم يوجد فقط أنا ألفيت المعنى الواضح الجلي لما يرى، للّذي نحيا على حـــبّ أو على مضض، للّذي يدمّر هذا الكون المقفر لحظة نهايتنا المظلمة الرهيبة.

على ضفاف الليل
ألفيتني هكذا وحيدة
أنثى مذ شبّت
تتفيّأ ظلال معان عميقة
خلّفتها كما العطر العتيق
لحظات آبقة

* * *

العـــبور إلى الحياة أمل كبير نحن فقط من يغتصبه رغما عن الزمن والآخرين لكن هل يتسنّى لكل منّا أن يفتك هذا الحق الذي

بدونـــه يصبح الكون موحشا، قاحلا من كل شيء مهمّ حتى من عذاباتـــنا المترهلة وهي في آخر الأمر الوحيدة التي تدل على أننّا بشـــر نحسّ. طبيعة إرادتنا المغتالة جعلتنا اليوم أمواتا نمارس الحياة ببلاهة قصوى لكن هذا ما راق لي أبدا لذلك عزمت على الهروب من وحش كاسر يتبعني كظلّي، قرّرت أن أفرّ من موتي السافر وها أنـــا على ضعفي أخوض غمار لجّ عبثية وجدوى أن أوجد... أن أحيا... هنا... هناك... بلا معنى... بلا اسم... بلا وجه... بلا هـــدف نبيل... بلا حلم يذكر... وجدتني أبحث عن كنه واحد يفصـــم عـــرى سلسلة أسئلة لجوج تصفّدني من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ.

أنا لا يمكن أن أوجد إلاّ من خلال إضطجاع متضادّات متنافرة هي في ذروة تصادمها واحتكاكها ترمي بي بين براثن الغياب. لكنني أرفـــض ومن أعماق الموت السحيقة، أتشبّث بخيط رفيع يوصلني إلى كوّة متناهية في صغرها تطل على الضوء.

الـــرفض المجـــنون الذي يسكنني ينير في دواخلي الشاسعة تلك الزوايا الغارقة في العتمة المريبة، وهو إن توهّج يبعث بشرارات ينجم عـــن تماسّـــها الحريق. بداخلي نار مضطرمة حتى أن ترهيب الآخر بالجحـــيم عند البعث صار يثير في الشفقة في لحظات صفوي النادرة والإشمئزاز عندما يجتاحني تمرّدي الكافر.

النار...؟ ردّه إلى أشد العذاب وطأة يا ربّ الصفاء الدائم... عذّبه بأحزانه الخرقاء التي لاترعوي... عذّبه بوعيه الفاجر بما لم ير إلـــيه الآخـــرون... عذّبـــه بغربته وسط الذين رماه الزمن بينهم رفاتا... عذّبه بعجزه المهين وأرهقه بذلّه أمام جهله بأسرارك العليا يا صاحب العزّة في الأقاصي... إنّما النار ذلك العنصر الملعون جزافا فهـــو لا مفـــرّ من التطهّر به لتحقيق الصعود إلى الأعلى... النار...

الحريق... بتّ الآن أدرك سرّ تقديس شعوب مختلفة المشارب غارقة في الحضارات البعيدة لها. النار مسبّب آخر من مسبّبات وجودنا لأنها تدخـــل في تكويننا فإن لم يكن ما أظنه صوابا فما مصدر هذه الحمم التي تصهد أحشائي؟

* * *

إســـتدراك: امح من ذاكرتك الموسومة بالنسيان معظم ما ورد ذكـــره سابقا واعتبره حلما زائفا من أحلامي المارقة التي شيّدتها على شفا جرف هاو آيل للسقوط بين الآن والآن.

تعـــال نعد نحو المدى البعيد... تعال نجر نحو الأفق المترامي... وسويّا سندخل محراب الحكاية فأنا لن أقدر على سردها بمفردي لأنها ليســـت حكـــايتي أنا وحدي. هي حكايتك... هي حكايته... هي حكايتها... هي حكايتنا جميعا... حكايتنا التي قدّر أن لا ترسو على نهاية.

سبع أغنيات حزينة تهبها عشقا لأنثى الريح في ليلة ماطرة.

الفصل الأوّل

الأغنية الأولى

هتك ستر بعض من أسرار أنثى توعد كل ليلة برقصتها الأخيرة

"مدينتنا تنكف من أوجاعها. مدينتنا تهب للمتجوّلين في أزقّتها العتيقة الضيّقة المتعرّجة متعة هي نفسها لا تعرف مصدرها لأنها لا تنبثق من أغوارها. مدينتنا تأبى على نفسها أن تتعرّى أمام أبنائها وأمام الغرباء العابرين حتى لايبكوا عزّها التليد الضائع.

مدينتنا النبيلة لا يعلم وهنها غير ذي الجلال مهلك القرى العامرة بلا رأفة.

في هذه الأيام الضحلة تتكلّم مدينتنا كثيرا... هي تثرثر دائما كي لا تقول شيئا يذكر لكنها يحدث أن تصمت أحيانا فيجيء على صدى سكونها الجارف الزلزال الرهيب. حدثي به يا صغيرتي. لاتتردّدي ولا تجعلي السرّ الذي أوصتك كبرى مدينتنا بحفظه في بئر عميقة القرار". هذا ما كانت جدّتي لا تمل سرده على مسامعي وأنا ما زلت بعد طفلة غضّة يكبر في رحمها القاحل الموت وتتمطّى بتشفّ في أحشائها الهزيمة النكراء.

ومرّت الأيام رتيبة... كامدة لا يلفت ما تأتي مثقلة به من جديد لا يفرح نظر كثيرين من الذين يحيطون بي ولا يجرؤ ذوو الرؤى الثاقبة على البوح بالتياعهم. فقط وجدتني أنا الثكلى المعولة

تضـــوى أمـــامي المشاهد الخضراء اليانعة الواحد تلو الآخر كي يحل محلّهـــا الخراب ناعقا يطفح بوحشة وغربة يعمّران هذه الأرض التي تعـــري كل صباح ثديها الهزيل المتهدّل كي ترشف الجثث المنتفخة دمهـــا النقي بشراهة ثم تمنح كل أصيل بصبر مستكين لجحافل الميّتين لحمها الذي تتقيّؤه مزقا عند آخر النهار.

هـــي جثـــث أسمعها تقول. هي جثث غمرت رائحة عفونتها الفضاء الضيّق... أجل هي جثث لا يكرمها الدفن... هم لا يعدون أن يكونـــوا موتى شبعوا حماما ولا يغرّنكم صخبهم المتعالي كثعابين الدخان في رحاب السماء المتذمّرة.

* * *

هـــذا الأصيل يدعوني إلى أن أطوف فيها مؤدية مناسك عشقي وولائـــي اللذيـــن يلازماني. السحب الداكنة سميكة وكثيفة. تغمر الفضـــاء فتوشك السماء الواطئة لثقلها أن تقع على الأرض المرتعبة وتـــرتطم دون شفقة برأسي الذي يكاد أن ينفجر فتسحقه وتحيله إلى خلـــيط مقـــرف من الدم والعظم المطحون واللحم وخلايا الدماغ المائعـــة... الـــرذاذ يهمي هسيسا فيسمع له إنشاد حزين يسري بين مسامي موجات كهربائية تبعث في نفسي المكدودة نشوة هي الموت يتاخم بعطف لا يحد وقسوة لا تلين الحياة.

الموت والحياة واحد اندمجا فاختلطت فيهما كل المعاني. يغشاني شـــعور غامر بالنقاء يصاعد بي إلى شاهق السماوات السبع أجول في ثخومها التي لا تنتهي.

أعشـــق التجوال في المدينة عندما تكون مغلقة وأعشقها أكثر لما تكـــون سماؤهـــا متكدّرة تبشّر بالطوفان العارم. اليوم جمعة والمدينة

فارغـــة إلاّ مـــن بعـــض السائرين حثيثا هروبا من الأبواب الموصدة المتجهّمة: "لا فستق اليوم يشرى تقضي به السهرة لذيذة ناعمة... لا مـــوزا ولا جوزا ولا ديكا روميا عاريا من ريشه يرفع عقيرته بالنواح وسط واجهات بائعي الدواجن ومشتقّاتها البلّورية. لا حنّاء اليوم، لا فســـتانا حريـــريّا يـــبهر الرائي ولا منديلا مزركشا يقتنى فتفرح به الزوجة... الغجريّة... الدافئة... النافرة... المنتظرة على لظى في هذا العشـــي القريـــر... ولا حذاء رياضيّا يقتنى من صاحب تلك المغازة الملحاح لقرّة العين الذي سيرفس بحذائه احتجاجا ويملأ الدار عويلا يا سيّدي أدام الله عزّ الجميع في ظلالك الرحبة. لماذا لا تحث الخطى إذن فـــرارا مـــن وجه المدينة الذي تجده كالحا؟ أنت لاتلج إلاّ الأبواب المشـــرّعة عـــلى مصراعيها حتى لا تدنّس روحك الآمنة بما يمكن أن يصـــدمك وراء الأبواب المغلقة. دعها للعمّهين الذين تعتعتهم الغربة كي يفتحوها فتدمى أرواحهم الواصبة وتكل نفوسهم المتعجرفة".

امـــنحني القـــوّة يا ذا الحكمة في الأعالي كي أحبّ هذه المدينة الموبـــوءة الـــتي أضحت خرابا أكثر... وأكثر... وأكثر مهما كانت كئيبة متجهّمة.

بعـــض الســـيّاح يداهمون على مهل الأسوار العتيقة الصامتة في خشـــوع. يتلمّسون الأعمدة الملساء العالية التي ما زالت تحتفظ بآثار عـــزّ آمن لا يفضحه بذخ زائف ويقلّبون بنظراتهم المفتونة المتفحّصة كـــل صخرة نقش فيها الزمن أوجاعه النّازفة قذارة سوداء وأنا بين أحضان الحوانيت ذات الجدران الواطئة أرمي بروحي المعولة نتفا.

المديـــنة متعـــبة وأنا طفلة واهنة تشحذ ذاكرتها الصدئة حتى لا تـــتّهم غـــباء بالـــتقاعس واللامبالاة. المدينة مثقلة بكوابيس مروّعة تجتاحها في خيلاء كي تجتث منها زهوها الذي كنت أراها تلبسه في أيـــام رائقـــة خوال وأنا طفلة معزولة... مسلوبة أتصنّت على أبوابها

الكـــبيرة كي لا يفوتني عواؤها وأناتها ولا تخفى عني أسرارها المنيعة. مديـــنتي صيّروها اليوم وهماً أزرق متعطّشا للخراب يكشّر عن أنيابه السوداء المنخورة انتقاما ويلوكنا في صمت فاجع دون وجل منّا. أنا لا أمضـــي وكأن الأمر لايعنيني، وأنا طفلة شاهدة على الجريمة وأنا امرأة بئيسة مكرهة على أن أخون الذاكرة المنكفئة على خزيها المقيت والأحبّة.

يـــاااااه... الحـــزن عقاب كاسر يتمطّى ويتمدّد في أحشائي. الحـــزن يربوع جائع يقرض أفراحي التي تواريني وتتوارى عني وكأن لهـــا عندي ثأر قديم. الحزن يضطهدني ويشرّح جسدي بأناة ثم يعبّئ الجروح التي لم تزل خضراء تنـــز قيحا أسود بالملح.

أفـــراحي ســـدى والزمن يضن عليّ بالضحكة الصادقة والحبّ المريب الذي دميت قدماي بحثا عنه يصفعني وهناك في الأعالي يرفض الركن الشديد إيوائي رغم انتهائي الوشيك فينـــزل بي نكاله وكأنني لم آت إلى هـــذا العالم إلاّ لكي أطبق ذراعي على الريح العاتية وعلى العذاب المهين.

أحسّـــني ضـــئيلة، هشّة داخل أوجاعي المتجذّرة وفجائعي المـــتواترة. الـــرذاذ يواصل همهمه هسيسا وأنا يتضاعف حنيني إلى أهـــازيج المـــياه تسحّ مهتاجة في مزاريب البيوت البعيدة المتوارية خلف الضباب والنسيان.

أعشـــق زخّات المطر تهطل دون ونى. ما أكبر قلب السماء لا تتـــباهى ولا تمـــن بعطائها. ما أكثر عيونها الباكية وما أبهى مدينتنا الحزينة درّة الأزمنة المعتّقة تغتسل في صمت يطهّرها فيجعل مريديها الدالفين إلى محرابها في رهبة عاشقين ولهين.

أرغب في أن أهرب بعيدا... بعيدا... بعيدا إلى حيث لا يمكنني

أن أرى هـــذه المدينة المنتهكة التي ألمحها تتشكّل خلف كثبان الدخان الحـــالك تـــارة والرمال السوداء المتراكمة تارة أخرى واهية معلولة. أريد أن أنسى أنني أحملها بأحشائي حبّا كبيرا يحيل قوّتي إلى وهن لا ينفك عن وخزي.

ربّمـــا لأنها ضعيفة فإنها تصبح أكثر قربا إلى قلبي والتصاقا به، هذه المدينة التي أخاف عليها من الإشتعال الصامت.

* * *

ضـــعت يا مدينتي البعيدة و لم أطل بعد هناء اختراق الأزمنة الأولى المنســيّة التي تصلني تراتيلها تباعا. ما زلت أجرجر قدمي الثقيلـــتين نحـــوك دون أن أدلف إليك عزيزة، مبشّرة بالصباحات الوضـــيئة، غازية مسالمة لا أحمل في أعقابي كالفاتحين الهمّج الموت زؤاما.

منذ أن وعيت وأنا أشعر أنني جديدة متجدّدة... قديمة... معتّقة هـــنا لكن لم يتسن لي أبدا عيش لحظة العودة إليّ... أحاول الرجوع إلى زمـــن الـــبدايات القصيّة فأفشل في معانقتها وكلّما تكرّر فشلي ازداد إحساسي بأنني كان يجب أن أبدأ بداية غير التي كانت.

مـــن أيـــن كان يجب عليّ أن أبدأ؟ كيف أبدأ؟ إلى أين أتّجه؟ ناشـــزة أنا إذ أنني من أولئك الذين يبدأون من أقاصي النهايات التي يوهمـــون أنفسهم بأنهم أدركوها كي يظلّوا عاكفين على البحث عن مصـــدرهم حد الرهق: منذ أن كانت روحي طفلة بهيّة تنشد الفرحة الراقصـــة أحســـت أن آمـــالي وأشيائي الحميمة تذوي. هرمت يا مدينتي وهرمت بي السبل الممتدّة تحيلني على السراب النهم المترامي، يقتات من فراغي فيضحي غولا أجوف يغمرني رعبا وفجيعة... يتيمة

أنـــا منك ومن أفراحي المسروقة وأبي المغدور به أبدا قد رحل باكرا مخلّفا اللوعة والحنين والذكريات الحامضة تفتّت الأحشاء للّذي لاقاه في الطريق الموغل في الخراب.

كـــل الذين أحبّهم خانوني ورحلوا، و لم تعطف أنت أيضا على وهـــني يا الـــ "بابا" الذي طالما درأ عني الأذى. خلفك تركت كل الأمكنة عوسجا تحفّ بها الرقطاء وتحوم حوالى وكل الورود الشائكة الـــتي ســـقيتها بدمك الحنظل ودموعك المتأبية وابتساماتك المتشنّجة حكـــم علـــيها بالظمأ والتحلّل. اشتقت إليك يا أبي. خذني حذوك وبجليد قبرك ذرني أتدفّأ.

وفجأة أغدو طفلة بظفيرتين مجعّدتين لا أدري كيف تحكم أمي جدلهمـــا لأنها تعرف أنني لمرجي ومرجي سأعود إليها بعد سويعات قلـــيلة شـــعثاء يثير مظهرى تقزّز وسخريّة الآخرين ويشعل في أمي جـــنونا وغضبا لاتقدر على كبحهما فتنفثهما سمّا زعافا في أحشائي. وكثيرا ما أثار تصرّفها ذاك تساؤلي وحيرتي إذ ماذا سيحدث للعالم لو أن هندامي ومظهري لم يروقا للآخرين الذين لا يملأ عيونهم المسمولة غـــير الـــتراب والظلام وأصيح بغبن أسود يفضح انهزامي المخزي: "مقهـــورة يا أمي... قهرتني ابنة أختك المشحونة حقدا وكراهيّة... قهرتني صديقتك الساحرة الشمطاء التي تحبّينها... قهرتني بومة الشؤم زوجـــة أخـــيك وبناتها... قهرتني ابنة الجيران التي أكره أن لا أحبها رغم أنها تؤلّب عليّ كل نديداتنا في الحي وتجعلهن يصطفينها دوني، ولكـــن ذلـــك لا يطـــول كثيرا إذ أنهن سرعان ما يعدن تائبات إلى رحـــاب حبّي الذي رغم ارتباكه لا ينضب أبدا... مقهورة يا أمّ... قهـــرتني غـــربتي بينكم وأمضتني. سوف أهجّ. أرض الله رحبة تسع وحدتي وشقائي. سأترك لهم فضاءهم هذا الأغبر المدمّر الذي لا يستحق غـــير اللعـــنة والنسيان يرتعون فيه مثل الفئران النجسة وينعقون مثل بوم

الخرائب المهجورة". ومعي تبكي أمي ملء أوجاعها العاصفة.

يـــا ربّ هذه الأرض المرفوعة على قرن ثور لم أقدر حتى الآن عـــلى تخـــيّل حجمـــه الرهيب، يا ربّ شجرة الخلد أسير في ظلالها الرحيـــبة مائة عام ولا أقول أعييت إن أنا ما قطعتها أو مللت مهما تناسخت أمامي المشاهد، يا ربّ هذا الكون بقمره وشمسه وكواكبه ومجرّاته ومذنّباته وإنسه وجانه، يا ربّ هذا العالم الرحيب أنا ضعيفة وهم يبغون تهشّمي، يا ربّ الآلهة في هياكلها المنعزلة ومعابدها المنسيّة لا تدعهم يسعدون بانكساري...

وقع الصفعة المفاجئة كان قويّا. في كبرياء طفولي عنيد تاه الآن عني أرفع رأسي الثقيل ذاهلة، تتحجّر الدموع العصيّة في مآقي لكني أتـــلمّس خـــدي الـــذي أحسّه متّقدا. صراخ أبي المرعد يصمّ أذنيّ: "ســـتظلّين هكـــذا تحلمين... تميمين دائما كالمجذوبة في فضاءات لا يراها غيرك... ستخلّفين لي العار والشنار أيتها الغبيّة دون نديداتك. كل الذين أعرفهم خلّفوا ضنى صالحا، أنا فقط لم يجئني من أمّك غير بنات الشؤم وأنت على رأسهنّ. أرسلتك أمّك إلى الكتّاب ماذا جاء بك إلى هنا؟ ألا ترين أن السيّارة كادت تدهسك؟ ماذا لو أن سائقها المجنون خلّفك وراءه أشلاء؟".

فـــم آخر من أفواه عدّة سيغلق يا أبي فيخفّ عنك الحمل الذي أثقل كاهلك المكسور. ليته فعل ذلك يا أبت! كان أراحني من وعثاء الرحلة الآتية وخفّف عنك مهانة مشقّة البحث عن الخبز الأسود.

ألمـــح في نظرات أبي الكامدة ما يؤكّد على أن ما كان يرعب أمي منذ أيام قد حدث. مرّة أخرى يستغني ربّ العمل أوهن الرحمان عظام ركبتيه وأسكن الظلام الدامس في مقلتيه وقصف عمره البئيس عـــن خدمات أبي السريع الإنفعال ويطرده. لم تنفع دعوات أمي ولم تجـــد تضرّعاتها في شيء وأكره الله الذي لم يبال بلوعة وارتياع أمي

من جوعنا وعوزنا أكثر.

أتشـــبّث بركبتي أبي كي أعوذ به من عذابي ورعبي: "تظل أبي وليس لي من حضن لا أخجل من اللواذ به غير حضنك. أنا خطؤك الكبير. اضربني أكثر ما دمت عبئاً عليك، لكن تذكّر أنّك أنت الذي تبوء بإثمي لأنّك لم تتروّ عندما أتيت بي إلى هذا العالم الخاوي. أحبّك يا أبي. إني والله بك أهيم وجداً وعشقاً... لا تعذّبني بعذاباتك التي لا ترعوي".

لا يدفعني أبي بجفاء. تخمد سطوة غضبه بسرعة... بسرعة كما في كـــل مرّة، يأخذني من يدي بعطف خفي لا أدري لماذا يصرّ أبي دائمـــا على مداراته ونتوجّه حثيثا نحو الكتّاب الذي تلحّ جدّتي على أن أقصـــده كل عطلة. ألمح ضحكة أبي المتواطئة الجميلة رغم وجعه الموشوم. هو يعرف أنني أكره سيرة أمرأة أبي لهب وزوجها اللذين لم يغنهما مالهما اللبد عن صلي الجحيم. صغيرة كنت وكنت أحبّ جنّة الرضـــوان رغـــم تساؤلاتي الكثيرة عما سأفعله خلال إقامتي الطويلة فـــيها، وكنت أمقت جهنّم التي يتوعد بها المارقون عن الصراط حد الغثـــيان وكنت أكره عصا العمّ عبد الله ينـــزلها وبالاً وسخطاً على رأسي الصغير رغم سرعة بديهتي وحفظي السريع والجيّد. أبي يعرف أيضـــاً أن المؤدّب لا يضربني هكذا عبثا أو تشفّيا فهو طالما اشتكاني إلـــيه لأنني لا أتوانى عن مناوشة رفاقي وعن التحدث والتفكّه لإثارة بلبلـــتهم وهـــرجهم هكذا خاصّة أثناء تلاوة سورة المسد. ولا أحد أدرك مـــرّة يتـــيمة أنني أهرب من ارتعابي إلى اللا مبالاة والنسيان. المؤدّب كان يعاقبني أيضا لأن كتابتي كانت رديئة... رديئة حد إثارة تهكّم الجميع.

كـــل مـــا أفعلـــه يبدو غريبا... يثير إستهزاء كل المحيطين بي

ودهشتهم حتى ذاك الذي أفعله بحبّ جامح وذكاء لا يحد... صرت نكاية بهم جميعا لا أبحث إلاّ عما هو مستهجن آتيه هكذا دون تردّد أو خـــوف... مـــا همّـــني لا قليلا ولا كثيرا إن كان سيثير قرفهم ونفورهـــم أو إستحسانهم وليكن "وادي الويل"مستقرّهم بين ذينك الجـــبلين الشـــامخين يظلّون يهوون إلى قاعه لا سبعين عاما فقط بل ملـــيونا وتزيد. هكذا شئت وحكمت والله يحقّق إذ تمنّيت وإن بعد مـــدّة أعســـر وأغرب أمنياتي وهكذا حدثتني جدّتي طيّب الله ثراها وجعـــل ذكـــراها عطرا نافذا يضوع في ثنايا الزمن الشاّسع. أمقت الجحيم لكني أمقت عماهم الداهية العقيم المولول أكثر.

مثلما هو يقصم ظهري بالأدهى يخبّئ لي الله الجميل الذي لا يخطـــر على بالي دائما... أنا كثيرة الأمنيات... لا... أنا أخجل مثلا من أن أدعو الله أن يمنحني السعادة كاملة... أين سأجد حزني من جديد إن أنا فرّطت فيه... كيف يمكنني أن أنسى طعمه المالح وأنـــا قـــد تعـــوّدت علـــيه، حتى أنه صار جنينا غاليا أحمله في أحشـــائي... حـــزني الذي أخاف عليه من الإندثار علّمني أشياء كـــثيرة جمـــيلة لا يمكن أن أستغني عنها والسعادة ستنسيني حتما فـــرحة أنني كنت أنا تلك التي أعشقها بأفراحها الصغيرة وتعسها المعـــرّش في دقـــائق الأيام وساعاتها. أنا آنف أيضا من أن أسأل الوهّـــاب المـــال العميم. أرى إلى وجهها الشاحب المرتعب دائما صديقتي الفاحشة الثراء... أراها فارغة... خاوية حد الفجيعة. هل حماهـــا المال من مغبّة الهزيمة... أنا لا أحبّ المال الكثير... أنا لا أريد مالاً إلاّ كي أشتري به فرحة صادقة تتلألأ على وجوه الذين أحـــبّهم... أنا أخجل من أمنيات أخرى كثيرة لا داعي لذكرها لكنني لا أتورّع من أن أتمنّى أن لا يحرمني الله فرحة أن أظل أرقص كـــل عمـــري على خشبة المسرح كي أقول ما يخطر على روحي

الظامـــئة، كما أنني لا أخجل من أن أدعو إلى الله أن أسلّم روحي إلى بارئها الرؤوف وأنا في أحضان رجل أعشقه.

أبي يعرف أشياء كثيرة عني ولكنني أخفيت عنه أمر حبي الكبير للعـــمّ عبد الله لأنني لم أشأ أن أبوح له به خوفا وحياء. أنا أنثى ولا يجب أن أحبّ رجلا آخر غير أبي حتى وإن كان في مثل سن جدّي. لكنني رغم ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أعشق العمّ عبد الله شبيه ملائكة الربّ في السماء، بوجهه الشفّاف المتلألئ الذي تكاد أن تـــرى ما خلفه وبشعره الثلجي الناعم المغطي جزءا كبيرا من جبهته الوضّاءة، بملابسه التي تنضح بياضا ناصعا وبوقاره الرهيب أحيانا. أنا لم أكن أذهب إلى الكتّاب إلاّ من أجل رؤيته والتملي في سحنته، وها أنـــا بعد عشر سنوات ونيف من رحيله الذي فجعني ما زلت أراه في جلباب يوسف يكيل لإخوته الإحدى عشر بضاعتهم، وعلى وجهه تأتلق حسرة التي صاحت "هيت لك" ورفيقاتها أنوارا تغري بالشهوة النبيلة الدامية.

كم أحبها تلك الأنثى التي عانقت النور ذات فجر رقيق وهبها مكـــرها للوجع الصارخ. كم هي مغرية تلك المرأة الفاتنة التي سمّاها أبوهـــا زلـــيخة قبل أكثر من ألفي سنة. لقد كانت أصدق ما يجب عـــندما لبّت نداء قلبها وجسدها اللعنة. وعندما صدّت أضحت لبؤة شرسة تنشب مخالبها النحاسيّة في الجسد المخذول الذي لم تقدر هي نفسها على حبّه أو حتى على التصالح معه. تخلّصت من سجنه العتم الموحش وبعيدا حلّقت... حلّقت في ثنايا الوجع المتشعّبة بأجنحة من نـــدى ومـــن ضباب صباحي رقيق يبشّر بفكّ الشموس من أصفاد حلمها الثاني عشر.

أمّـــا الآلهة والملائكة والأنبياء فهم الأكثر جمالاً وإبهاراً حتى وإن كـــانوا يوتوبـــيا يـــا أبي. إنهم وحدهم القادرون على التمويه بأنهم

يهادنون مشاعرهم الجارفة وينسون رغباتهم الجموح، ولذلك يظلّون في نظـــرنا هم الذين يطهّرون الكون بصفائهم من كل الرجس الذي حـــل بـــه. وهنا أنا أصرّ على أن ما أتته زليخة لم يكن أبدا الرجس الحقـــيقي كما تصوّر لنا جميعا رؤيتنا الضيّقة ذات المجالات المحدودة المـــنغلقة. لمـــاذا يستكثر على امرأة حرّة نبيلة أن تختار رجلها الذي أحسّت أن كل بذخ الدنيا لن يعوّضها عن فرحتها بلقائه ما دام هو وحـــده الـــذي سيدحض شعورها الفادح بالانفصال الذي يدمّرها قطرة... قطرة... نبضة... نبضة.

العـــمّ عبد الله أتراه كان ضمن الملائكة التي سجدت لأبي الخلق أم أنه هو الذي سجدت له عن رضى ملائكة السماء؟ كم كان يلذّ لي التصـــنّت إلى جدّتي وهي تسرد حكاية غريبة لا تملّها ولا يسأمها المـــتحلّقون حولها مشغوفين بما يسمعون. حكاية الجنية ذات الشعر الأزرق المنســـدل على كتفيها كبحر لا قرار له حتى أنه كان يغطي ساقيها اللتين لم يلمحهما العمّ عبد الله و لم يتأكّد من شكلهما وذات العيـــنين اللوزيتين شديدتي الميلان اللتين ترقصان في وجهها المستدير الناصع مثل قمر في ليلة اكتماله.

كانـــت تراود العمّ عبد الله عن نفسه لكنه لم يرضخ لإغراءات جمالهـــا الرهيب ولّما لم تلق في عالمه الذي قالت في البداية إنها وجدته بديعا حيزا ولو صغيرا لها، أقسمت على أن تجرّعه العذاب ألوانا بجعله يهـــيم مثل بهيمة جرباء في الوديان ومغاور الجبال طوال ما بقي من عمـــره. وكم كان عمر العمّ عبد الله طويلا لكنه لم يقضه هائما لأنه أحـــبط وعيد الجنية بقراءة القرآن آناء الليل وأطراف النهار. فقط ما ينـــبغي عدم السهو عن ذكره هو أن العم عبدالله أمضى ما تبقّى من حـــياته رجـــلا أعزب لا يفقه عن عالم الأنثى شيئا من ذلك الذي يتفاخر بمعرفته جميع الذين حشيت أدمغتهم بروث البقر.

عهـــدة هذه الرواية طبعا على جدّتي أسكنها الله فراديس جنانه الـــتي طالمـــا تاقت إليها، والتي تصر بثقة لا تمن على أن معاشر الجن الكثيرة تسكن في الآبار المتروكة وشقوق الجدران في المنازل المهجورة وهي تخنفي بشرّها المزعوم في كهوف الجبال وتحت الصخور الصلدة في الوديان غير ذات الزرع أو الضرع.

* * *

"حدّثـــني يا رشيد قبل أن نقصد الكتّاب عما يوجد خلف هذه الـــبوّابة الكبيرة". ويحرّك رشيد قطع السكّر في قعر قهوته الساخنة ثم يـــرفع بأناة الملعقة الصغيرة متذوّقا. وأصيح نافذة الصبر: "حدثني يا رشيد أرجوك وأنا أسرد على مسامعك فصلا آخر من قصّة العمّ عبد الله، والله هـــو ليس من نسيج مخيّلتي الضيّقة كما كان الأمر في بعض المرّات السابقة.

لقـــد اســـترقت السمع البارحة إلى جدّتي وهي تحكي، وكان كلامها كالعادة رحيقا لا يدغدغ بالا خاملا. حدثني يا رفيق طفولتي الغائـــبة. حدثني يا صديق براءتي المنتهكة فقد لمّ شملنا على صغر سنّنا براح أسئلة عنود لم نلف لها غير إجابات غامضة وإيضاحات مرتبكة وتفسيرات مبتورة ما قدرنا على إستيعابها".

وترقص زهرات الكستناء اليانعة أحيانا في عيني رشيد البرّاقتين الرحبتين ويتضوّع شذاها فيغمر كل الفضاء الذي نجلس فيه بعيدا عن الآخرين: مدرج قديم اندثر طلاؤه وبانت الشروخ في جدرانه العالية المتآكلة ذات الصخور الكبيرة الكامدة اللون. في آخر الدرج المغطّى بقرميد أحمر باهت تنتصب بوّابة من خشب الصندل المزخرف الذي تـــرك فيه الزمن أثره لكنه لم يذهب بكثير من رونق متعال يشي بعز مغـــر عاشـــته كل أشياء هذا المنـــزل الضاجّ ببذخ تلاحقه اللعنات

المتوالـــية. ويفرغ رشيد الركوة في كأسين كبيرين ويؤثرني كما هي عادتـــه دائمـــا بالنصـــيب الأوفر من القهوة أشربها، وكلامه القراح المتسلسل باشتهاء لم أعرف طعمه بعد أن شاء حظي العاثر أن يغادر رشـــيد إلى العاصـــمة الـــتي لم يرجع منها إلاّ بعد أن اجتاز امتحان الـــباكالوريا مما قلّص من لقاءاتنا الحميمة السابقة التي لم تكن تلفت الانتباه.

مفتون به الزمن

ذاك الطفل... الرجل الذي عشقته

وهبني قبل أن أجيء من المدى القصيّ

الكلمة

والسؤال

والدهشة

والوجع العنيد

وقبلة على الروح الكسير

ثم رحل

رشيد صغير صديقة أمي المدلّل، لا يتعثر مثلي في كلامه وهو لا تـــنفره العـــبارة مهما كان غرضه من الإيضاح مضنيا. رشيد تسلّمه الأفكـــار النبيلة الصافية نفسها بعشق وآفتتان. رشيد كان الفداوي الذي تختلج بداخله أنوار مغايرة شتّى ترتطم بعدم قدرتنا على المسك بها، وكان لا يعرفه أحد غيري لأنه دأب على الانعزال عن الآخرين.

غريب أمر رشيد طفل العشر الحزينة. من أين له أن يصمد أمام كـــل ما كان يمور بداخله المهدود؟ من أين جاءته القوّة كي يصارع ذاك الوجـــع المتعنّت الذي عشّش وترعرع بداخله؟ لم يشف رشيد

غلـــيل تساؤلي و لم يحرّك مزلاج البوّابة الجاثم في صمت موحش من مكانـــه كـــي ألج عالمـــه الذي لم أقدر يوما على تفنيده أو محوه من ذاكـــرتي المعـــربدة. رشـــيد كان فقط يحكي... ويحكي... ويروي بشجن قاتل مدمّر وكنت بكليتي أغدو آذانا متحفّزة وعيونا مشغوفة بما يتسلسل في مجالها من صور غير كل الصور التي ألفناها.

"عـــندما يخلـــد الجميع إلى أحلامهم المكرورة، كان كل شيء يـــبدأ. صدّقيني يا صفوى. أنا طالما ألفيتني شاهدا على وجودهم. في الـــبداية كنـــت أنكمش في سريري البارد رعبا وأتكوّر في غطائي الســـميك صيفا وشتاء حتى لا تفتح عيناي على مشاهد لم يكن من السهل عليّ التآلف معها، لكنني وجدت نفسي بعد مدّة لا أدري إن هي طالت أو قصرت معزولا من إرادتي، مسلوبا من قدرتي على أن أصرخ ملء رفضي بـــ: لا. يزاح اللحاف عن كامل جسدي الصقيع وأجـــدني مقرفصا أتفرّج بدهشة باردة كالجليد على ما يجري أمامي وراء الحـــيطان المحطّمة والتي كانت منيعة منذ حين. إنهم هم. هم بنو الأحمـــر الذين فتكوا بوقار والد أمي سابقا فجعلوه يرقص على وقع نغماتهم الساحرة كل ليلة هاذيا بكلام غريب، عاريا كما ولدته أمّه. ولمّا لم يجد معه دواء قيّده أخوالي بسلاسل من حديد إلى أن مات في قبوه وهو يعوي مثل ذئب جريح.

جـــدّي... جـــدي خلـــدون... أجـــل جدي خلدون الأمير الضـــليل... الأمـــير المخلوع كما يحلو لأمي أن تقول... الذي برّح بأعدائه الأجلاف ثم فرّ من بلاده البعيدة كي يبني مجد أسلافه القديم على هذه الأرض المنهكة ينهي عمره في الأصفاد مثل وحوش الحدائق العامّـــة. جمـــيع الذيـــن تربّيت في أحضانهم اليابسة المتشنّجة كانوا يتكتّمون على الذي حدث لجدي خلدون.

عرفـــت لاحقـــاً عـــن طـــريق الصدفة أنهم أخفوه عن عيون

الفضوليين الشامتين في قبو متروك... بعيدا وراء هذه البوّابة وأوكلوا لخـــادم قوي البنية أمر شؤونه الحياتية التي كثيرا ما عزف عنها جدي أيامـــا متوالية حتى أن المحيطين به المتمنّين نهايته الرحيمة كانوا يخالونه لن يصمد أمام جوعه وظمئه، لكنه كان يعود بعد فترة الرفض أكثر ضـــراوة وإقـــبالا عـــلى الأكل كأنه يقول للجميع: "لن أرحل عن قفاركم قبل أن تصدّقوا... لن أموت قبل أن أراكم تطبقون الأسنان على الرعب الأسود الناهش".

مـــنذ رحيل جدي التهمت الأحزان الكاسرة أفراح هذا البيت الذي كانت تغمره السعادة الراقصة. تساقط أخوالي فجأة الواحد تلو الآخـــر مـــثل أوراق شـــجرة خريف أهوج حل بغتة في غير أوانه، فكانت الفاجعة مرّة دفلى وكانت الشهقة خيبة وموتا زعافا. غادرت خـــالتي رضوى زهرة البراري النضرة إلى إحدى العواصم الأروبية في غفلـــة من الباقين خوفا من أن يردعوها عما قرّ عليه عزمها. كرهت حد الغثيان نشيجهم وانتحابهم المتواصل ورفضت لبس الحداد عمرها كـــاملا. ثارت وزمجرت. بكت وتلوّت مثل أنثى أصبحت قاحلة إلاّ من شراسة القادم والقادم هي التي بحدسها المتيقّظ أدركت أنه مظلم لا جـــدوى من الأمل في أن يعمّه نور غامر يجلي العتمة التي أحاطت بـــه. "نوحـــوا... عدّدوا وحدكم... وصفّوا مناقب موتاكم التي لم أرهـــا. اكذبوا وحدكم، أمّا أنا فلن أهدر عمري من أجل الذي لم يكن أصلا".

كذا كانت تصرخ دائما رضوى التي لم أعرفها ولكني كثيرا ما سمعت أمي تهمس بحسرة للمقرّبين إليها، أن إحدى صديقاتها رأت في إحـــدى الأحـــياء الوضيعة بروما رجلا يبدو غير عربي مطوّقا خصر خالتي رضوى بحميمية وهي تضحك بصوت عال خليع مثل عاهرة، وعـــندما حاولت المرأة الاقتراب منها لسؤالها عن حالها واستفسارها

عن وضعها المريب أنكرتها وطلبت منها شزرا تركها في حال سبيلها.

هكـــذا أضحت خالتي رضوى التي كان الأقحوان يتفتّح يانعاً عـــلى خدّيها إذا ما توجّهت بالكلام إلى الآخرين كما تحكي أمي. هكـــذا أصـــبحت خالتي رضوى بعد أن قرأت الحقيقة المرعبة ذات صـــدفة متوحّشـــة. تلك الحقيقة التي لن يطّلع عليها أحد غيري من العائلة بعد رحيل جدي بأعوام طويلة.

تســـاقط كـــل شيء في هذه الدار و لم يبق سوى باب سعادة يقولون إنها كانت تموج بين حيطانها. لم يبق غيرنا أبي وأمي وإخوتي وأنا نمضي مثقّلين بإرث حديد نحمله دودا مقزّزا ينخرنا من الأحشاء إلى الأحشـــاء ولعنة تلاحقنا إلى حين البعث... مللت يا صفوى... ســـئمت كـــل شيء... ماذا يمكن أن أنتظر من أيام قادمة لم تحفل ســـابقاتها بغـــير ضـــياعي والاستهزاء بأفراحي... كم من الفواجع ستسقط هذه الذاكرة المخدوشة المتورّمة غدا يا ترى؟ ماذا سينخرها مـــن جديد المصائب التي وعدت بها؟ آ... ه... لا شيء يجعلنا نكبر في غير الأوان مثل أحزاننا الكبيرة يا صفوى.

خلـــف هـــذه الـــبوّابة عالم غريب لا أدري لماذا لا ينكشف للآخـــرين. لا أحد سمع مرّة صرير بكرة البئر عند الهزيع الأخير من اللـــيالي الكأداء التي أقضيها وحيدا لا رفيق لي في هذا الكون الزاخر غيرهم. لا أحد سمع الماء يدلق على الأرضيّة الرخاميّة ولا أحد أنصت إلى غـــناء وأحاديـــث أهـــل الدار الخلفيّة. هم جماعة يعيشون على الانبســـاط الدائم المتواصل يا صفوى وكأني بهم اغتصبوا كل أفراح هذا البيت الكبير الذي يقول الجميع إن خلدون الذي هو جدي بناه بثروة هرب بها من بلاده البعيدة.ثروته التي لا يعلم مصدرها الحقيقي غير كاشف الأسرار وقليلين من ذرّيته الذين ستظل لعنة الدم المسفوك تلاحقهم إلى يوم ينشرون. أجل ثروته المهولة التي تعيشنا في بحبوحة

الـيوم وحتى الأيّام البعيدة القادمة. ما أكبر شقاءنا رغم هذا الرخاء العمـيم يا صفوى! ما أكثر أعراسهم الصاخبة وما أقوى زغاريدهم وضحكاتهم الممتدّة الطويلة تنطلق من حناجر لا قرار لها. هل تعرفين يـا صـفوى شكل هؤلاء الذين يغمزون لي دائما أن تعال شاركنا متعتـنا لكني أظل جامدا أمام استدعائهم الملحّ؟ أكيد أنك لم تقدري أبـدا عـلى تخيّل شكلهم لأن الذي رآهم نفسه لا يستطيع وصفهم بإطناب. إن شكلهم المرعب مثير للقرف لكنني لا أدري لماذا تآلفت مع رؤوسهم الكبيرة المدوّرة المسطّحة التي تعلوها قلنسوات مفرطحة حمـراء والتي تتوسّطها أفواه ضيّقة حادّة لا تكاد تلمح وعيون مطفأة داكنة بدون حدقات.

لا أدري كـيف لم أعد أرتعب لرؤية أطرافهم الطويلة الرخوة الـتي لا تسندها عظام ولكنها رغم ذلك قادرة على المسك بالأشياء الصـلبة بعـناية فائقـة. أمور غريبة أربكتني فيهم يا صفوى خاصّة أظافرهم التي تبدو دائما متوثبة للخدش والتقطيع وعيونهم التي يتراءى للغـير أنهـا تقدح شرّا وبغضا لكنني لم أعد أرهبهم كثيرا. فرحتهم بالحـياة وبهجـتهم الغير مفتعلة هما اللتان كانتا تثيران شفقتي عليهم وتجعلاني أتسامح مع ما قد يبدو شرّا يحملونه لم يمسّني جهرا.

* * *

أثكلتني نظرات رشيد المتوسلة تارة والشاردة أخرى عندما رأيته آخر مرّة بعد رجوعه من كندا. كان يطبق فكّيه على ألم فظيع يقطّعه إربـا. توجّست رعبا عندما مد لي ظرفا ضخما ألصق حواشيه بعناية مفرطة وأوصاني بعدم فتحه إلى حين يحدث له مكروه، وكأن المكروه قـدر قـد سـطّر له وكأنه يمضي بخطى حثيثة على عجل إلى موته المـتربّص بـه. ألحّ عليّ أن أحفظ الظرف بعيدا عن الأعين ثم تركني

وحـــيرتي. تـــرى هل كان رشيد خائفا من شيء لم يشأ أن يطلعني عليه؟ أتراه خلال غيبته الطويلة انخرط ضمن جماعة سياسيّة سرية من تلك التي انتشرت متستّرة بسلبيّتها وبتواطئها وبظلام عمّ هذه الأيّام الحبـــلى بالفجائع. أنا أعرف أن رشيد يرفض أن يكون ذا ألف وجه لذلك فهو لن يقبل الأمر بسهولة، ولن يرضخ لقوانين اللعبة الرائجة الآن والمكسوّة قذارة وسفالة، أم تراها جذاذات من نفسه حبّرها في غفلـــة من هذا الزمن الموحش الرتيب الذي تمضي أيامه الكالحة ببطء لا يحفـــل بـــالذين تكاد أنفسهم أن تنقطع لشدّة جريهم وراء موت يحملونه وحشا لا يرعوي وخرابا يتلبّسهم أنّى حلّوا.

تناســـيت كـــل ما خطر على ذهني من مسبّبات إحباطه الثائر الذي تمور به عيناه البديعتان وتعمّدت أن أجعل جمانة التي حكى لي عـــنها رشيد بعجالة وارتباك مريب ذات لحظة بوح هي سبب حزنه الجارف. كانت تنتفض بأعماقي بقايا أمنية مذبوحة أملت في أن أرد علـــيها رقصتها الأخيرة على نخب موتها التي كنت أراها غير عادلة. كنـــت أعرف في دخيلتي العميقة أن رشيد ليس لي... كنت متأكّدة أنـــه لن يكون أبدا لي... لكن وجعه كان ملكي الذي لن أترك أحدا يـــنازعني فـــيه ولا يمكن أن تفتكّه مني أنثى مهما سكنت في ذاكرته المضطرمة: "إن كانت جمانة قد تخلّت عنك فلا بد من سبب وجيه لم تذكـــره يـــبرّر رحيلها. أنا متأكّدة من أنه لا يمكن لأنثى أن تتركك هكـــذا عبثا إلاّ إذا كانت مخبولة لأنّك رشيد ولأنّك الذي تتمنّى أي أنـــثى أن تكون رجلها مهما سقطت ومهما كانت الهاوية سحيقة". ويشـــيح عني رشيد بنظره ويفصم عقد صمت غريب لم أعهده فيه زمـــن كنّا طفلين وصدّني به عن عالمه لما صار رجلا. "أنت أيضا لن تفهميني ما دمت قد انسلخت عن فضائنا المشبوه الذي كان. وحدي بقيت وفيّا له لذلك لم أحدثك عن أشياء غريبة مرّت عليّ فحطّمت

أواسي الفارغة من داخلها وزعزعت كياني المتداعي. كنت أريد أن أثبت لنفسي أن جمانة التي قرأت اسمها متلألئا على قبّة السماء الحالكة الظلام لا تعدو أن تكون حلما تهبه لي ليال متقاربة رغم أني أعرف أنها حقيقة ثابتة في حياتي. لم أشأ أن أخبرك بالحقيقة كاملة تلك المرّة حتى لا أبلبل خاطرك الذي أتصوّر أنه رسا على قرار يقضي بدفن حكاياتنا القديمة. لكن صدّقيني يا صفوى لو أنني تماديت في مجاراة إحساسي لكنت انتهيت منذ مدّة طويلة. أنا مشتّت بين حقيقتين لا تنيان عن التجلي لي. كل منهما تدحض الأخرى وتتمسّك برفضها القاطع لإمكانية تواصلها لكنهما رغم ذلك وعلى عذاب مّر مني تتعايشان وتنموان بداخلي هذا الهشّ فلا تزيداني إلاّ خرابا ووهنا وهوانا. أنا مشتّت بين ما أراه وما لا يراه البتّة غيري من المحيطين بي وبين واقع واضح أعيشه يحملني عسفا على أن أتخلّى عن كل ما يمكن أن يعاكسه. ليس سهلا عليّ أن أنسى ما ترى عيناي حتى وأنا أغمضهما كرها.

لاشكّ أنه توجد حياة أخرى مختلفة أو غير مختلفة عن حياتنا التي نحياها يا صفوى. حياة أخرى هنا أو هناك، قريباً أو بعيداً... لا أعرف... أنا لا أدري بالضبط موقعها منّي... خارجاً أو داخلاً... كل ما أحسّه هو أنه توجد حياة... لا بل حيوات أخرى فعلا أحببتك فيها... حضنتك فيها... قبّلتك ملء فرحي وحزني فيها... حملتك شيئا نقيّا بداخلي يا جـ... صفوى. أنا لو آمنت بانعدام حيوات أخرى ما عرفتك فيها ما كنت تحدثت إليك عن عربي الفاسق المخبول ولكانت ثقتي بهذه الحياة التي نمشي في رحابها غافلين متدهورة. هناك عالم آخر يثبت أن عالمنا ليس غباراً وعدما، فالله الذي خلق هذا الكون الفسيح الحثيث الحركة لايمكن أن يكتفي بوجه واحد لحياة واحدة متشابهة في كل تكويناتها مهما اختلفت

الطقوس الممارسة فيها. ما دام هناك ربّ جليل قد خلق الإنسان إذن لا بّـد أن تكون هناك موجودات أخرى تحقّق وجودها. قد تكون متخفية عنّا بعيدة وقد تكون على مرمى فكرة عصيّة منّا إلاّ أن رؤيتنا وإدراكنا لها لا يبلغانها. يجب أن نعترف بوجود أشياء أخرى هي ملء روحـنا الهائمـة رغم أنّنا لا نلمسها. وجودنا يحتّم توفّر ضدّه وظلّه الـوارف ومثله المختلف في كل شيء وإلاّ فإن كل الكون ميّت. لا يمكن لحياة البتّة أن تسكن في رحم الموت أبداً، فمن رحم الموت هذا نتدفق الحياة متلألئة في لحظة نسيان عارم ترحمنا من مغبّة الضياع في تلافيف التكرار الذي يؤول إلى السأم المهين يا حبيبتي.

جمانـة التي تعرفينها أنثى من لحم ودم لا تعدو أن تكون طيفا لاحقـني حـتى في كـندا. هناك كانت تخرج لي من بيوت بدائية اسـتقرّت في رحم جبال الثلج أميرة ناصعة شفافة تتنقّل بخطوات من رفـض عاصـف مجنون وتمرّد فاضح. كانت أميرة تنبثق منها أنوار خالصـة لا أسـتطيع وصفها. تأتيني كل ليلة سائلة في حيرة معربدة خرساء عن رشيد الذي أحبّته سابقا وسرت برفقته على ذرى الجبال وفـوق الغـيوم اللينة الخفيفة البنفسجية وأتقدّم نحوها كي أحضنها وأبـرئ حرماني من رائحتها الزكية، لكنني لا أطبق ذراعي على غير الفـراغ فأبكي وأبكي وأبكي إلى أن يغرق فجر تورنتو الضبابي في دموعي الطوفان.

كنـت لحظـتها متسمّرا أمام جهاز التلفزة مشدوها لما غزت الشاشة صورة لم أتوقّع مرّة أن ألقاها. جاءني صوت مقدّمة البرنامج الوثـائقي الواثـق الرقـيق: "... وهنا في جبال ديفريت من منطقة كابدوكـيا تـتفرّد التكوينات الحجريّة ذات اللون الأبيض الباهت بأشـكالها الأسطوريّة الحيّة التي سوّتها يد مطواع فوق بشريّة ولهانة بفـنها فجعلت من الحجارة الجلمد آدميين قادمين من ثخوم المجهول

يمارسون طقوسا غارقة في الإدهاش والرهبة... هنا تتمطّى الخرافة المعجزة وتنبض فتحلّق بأجنحة من انعتاق وصفاء... هنا تنبري لنا أسطورة بدء الخليقة عارية... هنا ترقد الآلهة المقدّسة... وفي كل أرض قريبة كانت أو بعيدة ترقد آلهة من نقاء ونور سرمدي غامر قد ترفض أن تتجلّى".

لم يثرني التعليق الشاعري العميق حينها بقدر ما أثارتني الصورة التي من خلالها استطاع المخرج إبراز روعة المكان الصارخة التي تتجلّى لي منذ أعوام بعيدة والتي طالما بحثت عنها بين صفحات كل أطلس يقع عليه نظري لكني كنت في كل مرّة أتلمّظ فشلي وخيبتي وأتصوّر أن ذلك المكان الذي أبحث عنه لا يعدو أن يكون ركنا بعيدا في الجنّة الموعودة لن يحظى برؤيته غير الأبرار المتّقين. وفي الغد كان أن احتجزت لي بإحدى وكالات الأسفار تذكرة على أوّل رحلة اتّجاهها تركيا التي تنتصب جبال ديفريت في أعماق جنوبها. لم أكد أحسّ بإرهاق الرحلة من تورنتو إلى إستانبول التي لم أمكث بها غير سويعات قليلة على عكس عادتي لأنني توجّهت مباشرة إلى القيصريّة وسط الأناضول. لقد كنت متلهّفا فقط إلى معانقة الحلم الذي صار لا بد أن يضحي حقيقة وكانت الدهشة... وكانت حلوة... حلوة... قاتلة وكان أن نامت كابدوكيا المشتعلة برحاب روحي الظامئة آمنة في حضن قرية أبي البربريّة التي زرتها مرارا تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة فصارتا واحدا وصار لا يعوزني غير الصحوة المربكة، كي أوقن أنني لست ابن أراض تهبها جغرافيا صمّاء عمياء لا تحسّ، بل أنا ابن لأرض روحها فيض عارم من شعاع لا يخمد. أنا إنسان هذا الكون الذي لا يسعه أفق ممتد يا صفوى. أنا إنسان هذا العالم الذي لا يقدر أن يعشقه إلاّ إذا احتفى بإنسانيته التي لا تتحقّق إلاّ حين شعوره بانتمائه إليها. وإني يغرّبني عني كل ما

عشـــت لكـــي أراه. هذا الزمن... وهذه الحضارة... وهذه الأسوار الضـــخمة الـــتي لا نراها ولكنّنا نحسّها تجثم شاهقة بيننا تهين واقعنا الصامت وتلحق العار والامتهان بإنسانيّتنا فتحيل دواخلنا إلى دخان وهشـــيم. هل كان يجب أن أدفع ضريبة حبي لهذه الأرض التي ترزح تحت عبء خطايانا وأوزارنا وترتجّ؟ أم أنه عليّ أن أنوء بحمل لعناتها صـــبّتها جمّا على جدي ثم على ذرّيته لعدم إيلائه لها كبير اهتمام؟ لا أدري أي ذنب ارتكبت حتى أعيش هذا القهر.

* * *

إني أرى جـــثتي يا صفوى تتدلّى لا يمسكها إلى السماء المتعالية خـــيط... إني أراني بعيدا... بعيدا... قصيّا عن كل أشيائي العزيزة النائحة التي تخلّت عنّي. إني أراني معلّقا في الفراغ اللامتناهي، لا سماء تشـــدّني إلـــيها ولا أرضا تطولها ساقاي المرتعشتان فأحسّ أنني أقف عـــلى صـــلب يحميني بعدم انـــزلاقه وانمياعه. إنني أحسّني خاويا... فارغـــا تقرع داخلي رمال صحار مهتاجة تذروها أعاصير متوحّشة فتكـــت بأقوام قديمة اندثرت. إني أرى جثتي المتعفّنة يا صفوى يلعق دماءها السائلة وقيحها النتن النمل الأبيض. نمل أبيض عملاق يخرج مـــن عـــيونه المبحلقة الدخان الأزرق... أنظري، إنها غربان سوداء كـــثيرة... كـــثيرة... كثيرة تحوم حولي. نعيقها الموحش يخيفني لأنه يدعـــو لي الموت. بارد أنا يا صفوى... بارد حد العظم ولا سبيل لي الآن غـــير الفـــرار إلى قـــدري الـــذي لا يأبه بضياعي واندثاري. الأخصّـــائي الذي التجأت إليه قال لي إن المانخوليا والبرانويا كلاهما اجـــتمعا عليّ وطمأنني إلى أن العلاج الكيمياوي كفيل بعض الشيء بالقضـــاء على أعراضهما. هو لم يفهم أنني لكثرة قراءاتي واطّلاعي شخّصت هذين المرضين في منذ مدّة وأنني وعيت في أوقات إدراكي

أنـــني فريسة غبيّة لهما، كما أنه لم ينتبه إلى أنني تعاطيت الأدوية التي ينصح بها في مثل هذه الحالات وهو لم يلمح آثارها الجانبيّة عليّ من خـــلال ارتجـــاف أصابعي وعدم قدرتي على التركيز أحيانا. لماذا لا يساعدونني بإدراك أن ما يرونه تهويمات تصيبني هو الحقيقة عينها؟ ما جـــدوى علمهم الذي يدّعون أنه تجاوز كل الخوارق وهم في الدهماء يجذّفـــون؟ لماذا لا يفهمون أنني لا أهذي عندما أبوح لهم بأنني أرى بلـــدي تلـــتهمه جعلان سوداء عملاقة تتصاعد من أفواهها وعيونها نـــيران متّقدة تلفحني فتصهد جلدي المنتشرة دامله وتحرقه... وأكاد أكـــون في غيـــبوبة مـــن أمـــري وممّا يدور حولي... إني منهك يا صفوى... منهك وماقت لعجزي حد الكفر بوجودي هذا الذي لا منفعة منه ترجى ولا حتى ضرر ربما قد يعني أنني أحقّق أمرا ما أرضى عنه وإن كان سيّئا لا يقبل به. وتفاقمت ريبتي في كل شيء. تملّكني الرعب والشعور بالاضطهاد والمحق. رشيد لا يتقن غير نقل إحساسه بالفجيعة المدمّرة والانفصال المحتّم إلى الذين يحبّونه.

* * *

رشـــيد لن يعّد النجوم المرصّعة في كبد السماء هذه الليلة، وهو لـــن يبحث في سمت القمر المكتمل عن وجه أحبّه و لم يجده حتى وإن كان على مرمى شهقة منه. رشيد لن يرى شمس الغد تبزغ من وراء الســـحب الكثـــيفة، وهـــو لن يرى أقاحي الربيع القادم تتفتّح ملء بهجـــتها. أقفرت الليالي والنهارات الطويلة القاحلة من رائحة رشيد ومـــن ضـــحكته النادرة المتوتّرة. رحل رشيد. خلّف وراءه الغمام الرصاصـــي يملأ السماء والغبار الخانق يغلّف الفضاء الكامد. رشيد دون أن يـــرأف بحاله شنق نفسه. لا أدري إن كان ذلك قد حدث ذات لحظة ضعف تجاوزت حدود الصبر أم أنه حدث في لحظة انتشاء

وإحساس مموّه بالقوّة رأى أنه عليه أن لا يفرّط فيها طالما أنها صارت ملـك يميـنه. لحظة الوهم تلك التي نخال دائما أنها تجاوزت المدى ومزّقـت الحجـب السميكة هي التي طالما خانتني وغدرت ببهجتي القصـيرة الوامضـة لأجـدني بعدها واهيّة مملوءة بالظلام وبالعجز وبـالعدم. قبض رشيد على تلك اللحظة بيد من حديد وغلب نفسه المـتوتّرة فأنتصرت عليه وجرّعته موتته التي فاجأت الجميع. أنا فقط مـن استقبل النعي وكأنني كنت أنتظره منذ زمن غارق في البعد. لم أحـرّك سـاكنا. لم أصـح ولم أذرف دمعة واحدة تطفىء الحريق المضـطرم بأحشـائي. لم تفضحني شكوكي التي داهمتني ولم أسأل المقرّبين منه عن سرّ عذابات رشيد الدامية وعن رعبه الغريب المسيطر علـيه رغـم أنه مهندس ناجح ورغم أنني علمت بخبر افتتاح شركته الخاصّـة مـنذ أيام قليلة في إحدى المدن الساحلية. أنا فقط انكفأت عـلى جـرح آخر عميق من جروحي الضارية التي لا تبرأ ألعقه في سكون جارف وخضوع مخز.

وصـدفة تعرّفـت على نجيب عبد الباري... أخذ بيدي رغم صـلفي وسوء مزاجي... منحني فرصة عمري الذي كاد أن يذهب هـدرا... نجيـب... رجل آخر جميل في حياتي أعطاني مالا يسهل عطـاؤه فأحببـته ملء صدقي وامتناني. رماني نجيب بعطف كبير في الحلـبة كي أواجه نفسي. ووقفت منتصبة شامخة. لم يكن هروبا إلى الـركح... كانت عودة إليّ... إلى أنائي المهشّمة... المتفتّتة. وصار الركح عالمي الحنون الذي لم أنتبه إليه سابقا أو ربما أحببت الالتجاء إلـيه لكن تواضع حظي من البهاء الفاتن حال دوني وإيّاه فلم أجرؤ على مجرّد التفكير في الإنتماء إلى فرقة مسرحيّة هاوية. ومكّنني نجيب مـن معانقة الخشبة بعينيّ... بقلبي... بروحي... وبكل نأمة حيّة في وها أنا أحتمي إلى يوم الناس الآتي بما تمنحه لي من انعتاق من وجعي

الذي كان يتوحّش كل لحظة وأخرى أكثر. الفن لا يخلّص تماما من الوجع الضاري لكنه يجعل الهارب إلى رحابه الشاسعة يستسيغه ويقبل معاشرته.

* * *

رحـــل رشيد صديق صغري الجميل ورحل العمّ عبد الله الذي أحببـــته خفية عنك وغادرت بغير رجعة أنت الآخر. بالأمس رحل شـــبل أمي فهاض جناحها وانطفأ حلمها واليوم تغيب أنت فتكسر قلبها. وأظل أنا عاجزة هنا. ماذا بقي لي في هذا الزمن المخروم؟ لماذا يـــرحل البهيّون هكذا بسرعة يا أبي؟ أليخلّفوا ورائهم الزمان والمكان والـــروح خرابا ترتع فيه الجداجد الضامرة والوطاويط العمياء التي لا تبصـــر في غير الظلام الحالك؟ ترى هل تبيّن رشيد انتحابي الصامت حـــين واروه الثرى أم أنه كان منتشيا بمعانقة الفضاءات الوسيعة التي طالما تاق إلى رؤيتها والتحليق فيها. "متى تخبرني عما رأيت ولا أرى يـــا رشـــيد؟" والعمّ عبد الله! ألم يتساءل عن سرّ لوعتي وسط ذاك العويل الكئيب الذي ملأ الأرض والسماء يوم رحيله؟ كم كان كبيرا حزني الذي حملته عن العمّ عبد الله حيّا وغائبا. كم كنت أشفق عليه من غربته التي لا يعرف ضيمها غير الذي تجرّعها بعد الثمالة.

* * *

لا يسرّك اعترافها يا أباها الغالي فهي أحبّت الكثيرين، لكنها ما عشقت طوال حياتها رجلا أكثر منك رغم أنها الآن بعد رحيلك تقرّ دون خجل أو وجل أنها كانت أحيانا تكرهك حد البغض.

مـــا غضـــب أبي ولم يزجـــر، ليس لأنه تحت التراب ذاك أن للأموات آذانا رهيفة تسمع وأصواتا شجيّة لا يخنقها غير نسياننا الغبي

الأعمى ولامبالاتنا القذرة. ها أن صوته يصلني من بعيد شاديا مترنّما وكأنه لم يعرف ما كنت بصدد البوح به دون خوف منذ قليل:

أنثاي

على وهن مرّ أتتني

أميرة مرصّعة

تبارز الريح

وتزرع في أدغال الروح

ريبا آخر

لم طعنتك الأحلام يا إسماعيل

وعافتك الأماني

لما خاتلتك الأيّام

وقد يممتها حبّك

ولها ظهرك

وقل:

لي

ولذرّيتي الآتية من رحم الصبار

في زمن الأضحيات

حلم

سيّان الآن إن هو أينع

أو استحال يبابا

أجل يجب أن لا أخجل من أن أقولها. أنا كنت أحيانا أكره أبي حـــد البغض لما كنت طفلة، وتفاقم كرهي ذاك لما ولجت ثنايا صبا موغل في الوجع والحرمان. قد يمحي الزمن من ذاكرتنا أحداثا نتصوّر أنها غارقة في الفرحة لكن تلك التي تكون حامضة بطعم العلقم نظل نذوّبهـــا العميقة راسخة موشومة على جدار الروح الواهنة حتى بعد برئها لأنها فقط تنتظر الذي يجيء لينكأها. واتتني أيام غارقة في المرارة كنت أحسّ خلالها بالذنب لذلك الذي كنت أراه شرّا بتلبّسني ولكن تلـــك الأحاســـيس تداهمني رغما عني فتنـــزل على روحي المكلومة نيرانـــا مضـــطرمة... كرهت المدرسة حتى أني صرت أحسد جارتنا المشلولة على انـــزوائها في أحد أركان المنـــزل طيلة النهار تتملّى في ملكـــوت الله الرحيـــب... كرهت النظام فصيّرت كراريسي وكتبي أشـــلاء لا تصلح لغير صندوق القمامة... كرهت الناس... كرهت عـــائليّ وكرهت نفسي حد الغثيان وحد الشعور بالرغبة الجامحة في مقاطعـــتها والانفصال عنها وعن الجميع... كرهت الله... كرهت الله... كرهت الله الذي لا يرى عذابي.

تلـــك فترة نديداتي المتلألئة قضيتها في معانقة الدمى والأحلام البهـــيّة الوضّـــاءة. لماذا فتحت عيني باكرا يا زمن الخيبات وأدخلتني رواق الأحزان المتلفّعة بالرماد؟ لماذا اغتلت أفراحي وسرقت طفولتي المـــنكوبة؟ لمـــاذا رميت بي في دروب الغاوين الشائكة لا ألفي فيها مســـربا جليّا؟ لماذا جعلتني لا أتوق لغير معانقة جمالها الطافح أناشيد بدائيّة عذراء كما كانت تصوّره لي وأنا مغلقة العينين رؤايا المتمرّدة:

بيني وبيني

أزمنة قصيّة

أثثها الخراب

كيف أتجاوزها

كي أعيدني إلى مدينة بهيّة

شيّدها قبل بدء البعث

الشـــ... شعراء

* * *

المظر يؤجّج في نفسي الحائرة مشاعر فيّاضة. الحبّ الكبير يشبه وقع زخّات المطر ويحاكي أغاني مزاريب بيوت الأحياء العتيقة البعيدة الآن بهـــاء وصـــفاء وروعة ورقّة تثير العطف والتأثر حتى في القلوب الجلاميد. أنا أدمن الرجوع إلى ذاك الزمن الدافئ مهما امتدّ في الجور لكن الرجوع إلى الوراء كلّفني وجعا ضاريا يمضغني دون رأفة. قدري أن أهـــرب من كل لحظة أعيش في صلبها لكنني أرفض أن تحتويني. العـــالم مظـــلم... مظلم بشكل فاجع، العتمة تكشّر عن أنيابها كي تحـــرق في صـــمت اليانع واليابس. وأنا أراهم في الأثناء بدون أدنى إحساس بالندم والخجل يدوسون أشياءهم الغالية.

وجـــدت السماء كي تتفرّج من عل على تفاهتنا المزرية. وجد المكـــان كي يتحمّل أوزار خطايانا التي قصمت ظهر الزمن. وجدت الأزهـــار كـــي تخفّف من حدة القبح الذي طغا على هذه البسيطة ووجـــد الحـــيوان كي يأكل وينام ويستيقظ وينمو ويتكاثر ثم يموت وكأنه لم ير في يوم من الأيّام أشعّة الشمس الساطعة و لم يستحمّ مرّة بضـــوء القمـــر المـــنطوي على غربته. أما نحن فقد خلقنا لنغرق في متاهات طقوسنا اليومية المملّة المعيدة نفسها في موت بطيء. نحن ما جئنا إلى هذا الكون إلاّ من أجل تحقيق هدف نبيل لا يمكن أن يخطر عـــلى بـــال أي من المخلوقات الأخرى البسيطة المتحرّرة من أشيائنا

الحميمة التي تكبّلنا. ولأنّنا نحن فقط ذوو العقل والرجاحة أنيط بعهدتنا أن نؤدي ذاك الهدف بقدر كاف من أمانة تقتضيه حتى لا يداس ولا يذهب في مهبّ النسيان فنصير عدما ونغدو أقل من لا شيء تذروه الرياح. نحن ما خلقنا إلاّ كي نسعى دون كلل إلى تنصيع صورنا أمام الآخر رغم إدراكنا أنّنا لا نكاد نكشف من حقيقتنا القحة شيئا. ليس هدفنا من ذلك أن نكون جيّدين فعلا إنّما غايتنا القصوى هي أن نطمس ما سوانا وأن يشهد الآخر... هذا الآخر الغول الذي يطوّقنا من النبض إلى اللحد ولو زورا ونفاقا بأنّنا نحن الأحسن ونحن الأجدر من الجميع بالحياة الكريمة وكل ما خالفنا لهو اللغو والرداءة عينها.

ويلجّ بداخلي السؤال الناهش... يلحّ... يتلوّى مثل أفعى تقضم بشغف وعلى هوادة أمانا أتخيّل أحيانا أنني أهنأ به. لماذا يريد كل منّا إحاطة نفسه بهالة مضيئة تبلغ درجة قداسة لا تلبث أن تصير سجينة مخيّلتنا الآسنة العطنة؟ لماذا نزيّف ذاتنا حتى تضحي غريبة عنّا لا يشدّنا إليها وصل؟ أنا أبغي أن أظل على شكلي هذا الذي ارتضته لي الطبيعة وإرادتي، ما الضير في أن تقبلوني كما أنا ما دمت مصرّة على قناعاتي؟ لماذا أرمس وجهي الذي أحبّه بكل تفاصيله وخطوطه التي لا تعجبكم فأصبح غريبة عنّي؟ أنا أكره أن أرضيكم فأكون متاعا آخر كئيبا لا يضاهي في نظري غير العدم. أنا أمقت أن أكون هو أو هي أو هم. في هذا الزمن هم يسعون مثل كلاب مسعورة إلى طمس معالم الجميع لأنهم لا يبغون غير مدينة بوجه واحد. هم يريدون مدينة بعقل واحد... غائب... هم ينشدون مدينة بوجع واحد... أعمى... هم يسعون إلى تشييد مدينة بحزن واحد يشكّلونه وفقا لمزاجهم البئيس ثم يصيحون: "هذه هي السعادة التي يجب أن لا

تفرّطوا فيها". وهم يعضّون بنهم كل من تخوّل له نفسه الضالة الحياد عن سراطهم.

كيف لمدينة مفجوعة صادروا أحزانها وغيّبوها تحت أقنعة مريبة أن تزهو؟ كيف لمدينة مكلومة انتهكوا أفراحها واستباحوها أن تهنأ؟ كيف لمدينة سرقوا فجرها الوجع أن تضحك ملء روحها الرحيبة التي جعلوها أضيق من خرم إبرة؟ الجميع هنا يهربون من هزيمتهم إلى كذبة ساذجة لا تغني عن ذل دهاق ولا تخلّص من ربقة عتمة موعودة.

كثيرون ممّن أعرفهم يجعلونني كلّما اضطرّتني الظروف الكسيحة إلى الإستماع إلى أحاديثهم الملاكة أحسّ برغبة في تقيء أحشائي. أصير أنا الأكثر قربا من عالمهم الحقيقي والعديمة ألفة مع أبراجهم السامقة المائلة المشرفة على الهوي، والتي شيّدها نفوسهم الصغيرة الراضخة الذليلة. وتصبح حقيقتنا عارا نأنف منه. وتغدو ظروف قاسية عشناها تهمة قذرة نتبرّأ منها رغم أنها عاشرتنا وتحمّلت نزقنا وتذمّرنا. الزمن بريء من مشاكلنا التي لا تنهال على رؤوسنا عبثا لأنّنا نستحقّها. الزمان عفيف من تظلّمنا ما دمنا إلى هذه الدرجة لا نوجد إلاّ من خلال اعتبار الآخر الغبي لنا وهذه ذواتنا المصلوبة منكمشة على خزينا، منسحقة تحت وطأة استسلامنا وخضوعنا المشين. ذواتنا المنكسرة التي تتمنّى لو أنها لم تكن لماذا لا نسألها عن موقفها من نفافنا وتزلّفنا وآستجدائنا للإعجاب؟ أهي تضحك من غبننا ذواتنا تلك عندما نقف أمام المرآة لنتجمّل ونصفّف شعورنا أم أنها تغمض عينيها على الفراغ المدقع حتى لا ترى كل ذاك القبح الذي يلتهم بأناة أزهار السوسن والأقحوان والنرجس والخشخاش والنيلوفر ويحوّل أشعّة الشمس المشيحة بضوئها إلى غبار ودخان

شـــاهقين؟ ألا تمتد من المرآة الصقيلة إلى وجوهنا المجدورة سفها أياد غلـــيظة تصفعنا بكل حقدها وتنشب بضراوة لا ترأف في أجسادنا الرخيصـــة الأظافـــر المخضّبة بالدم القاني الذي اغتال كل ألوان أمير سيّد كان يدعى قزحا سابقا يطل في كبد الزرقاء مرافقا المطر الهادئ الحـــنون والشـــمس الســـاطعة في رفق ناعم فتغني في حيزه النسيح العصافير المحلّقة والأشجار الوارفة المخضوضرة والجرداء ويرقص على إيقاعاتهـــا الحالمـــة المحتشدة بهجة أطفال الأحياء المدقعة أو الفاحشة الثراء.

منذ متى لم يطل علينا قوس قزح؟ منذ متى لم يهبنا فرحة الرحيل إلى الألوان التي تهب نفسها من العدم المشحون صفاء وعطاء؟ نسيت لطـــول غـــيابه آخر مرّة رقصت فيها نشوى لما لبّى دعوتي له فجاء محمّـــلا بالحـــنين والوعود والرؤى. ضاع قوس قزح الآن... تاه في دروب النســـيان... اندثر... كيف اهترأت مرايانا؟ كيف تهشّمت واحترقـــت هـــي الأخرى يا إله هذا الكون الكبير الصامت؟ كيف صارت عمياء لا تسمع، صمّاء خرساء لا ترى؟

أن نكـــذب هـــو أن نكره. كم هو عظيم هذا الكره الذي عمّ العالم! كم هي شاسعة مساحة هذا البغض الخانق الكاتم على الأنفاس المكبلة! من غير إنسانيتنا المدحورة المتشرّدة على أرصفة الفراغ يقدر على أن يحول دون هذا الطوفان العارم الذي لن يبقى ولن يذر؟

أنـــا فقيرة معدمة إلاّ من محبّتي، ارفعني يا إله الفقراء المعدمين إلى جـــوار القدّيســـين إن وجدوا. يا ربّ المقهورين الضعفاء ارفعني إلى حيث عرشك المديد لا يتجرّأ أحد على تدنيس ما حوله. شد أزري حيـــث أنـــت وخذني إليك. اليوم كالغد لا أحد سيبكي رحيلي، لا أحد سيضيره تحلّلي الفادح.

يا أميرة الأفراح المنسية

يا أنت

هذا زمن خؤون

وهبوك له

قربانا على مذبحه المسنّن

ينتفض

يا سيّدة الأحزان القديمة

يا زهرة المدائن المخذولة

هذا زمن كؤود

هذا زمن نصل شحيذ

يقطّع روحك الرافضة

* * *

المطـــر يرحل بي إلى الضفّة الأخرى للحبّ. عندما يهطل المطر أفقد إحساسي بجسدي. أغدو أثيريّة، أخترق الزمن العفيف عن كل المآســـي الـــتي ننســـبها إلـــيه هربا من مواجهة الحقيقة وأصّاعد... أرتقي... أرتقي ملء إرادتي إلى نقاء تهفو إليه نفسي. يكبر حبّ هذه المديـــنة في قلـــبي المنكســـر الحزين فأغدو أخرى. أجابه حبي الكبير لمحظوظـــتي لكـــنها تهزمني لأنني لا أقدر على كراهيّتها. تسكنني كل المدائن ولا أعرف غير واحدة موحّدة، متعدّدة شاملة أحمل تفاصيلها بداخـــلي أينما حللت فتتشكّل في وجه كل أرض أطؤها لا شكّ أنها هـــي الأخرى تملأ آخرين لا يعمون عن أسرارها. أعرف كل شيء عن هذه الأرض العطرة لكنني لم أفلح حتى الحين في إختراق أسوارها

الدخـــيلة رغـــم أنها تبرق تحت الشمس مثل لؤلؤة نادرة غفل عنها غوّاصو الأزمنة الآتية على عجل ورغم أنها تسلم لي نفسها مثل آلهة مرصّـــعة تفـــد مـــن الأحلام العتيقة المضمّخة برائحة الانتصارات والإلهـــزامات البائدة التي طواها التاريخ. هل يكفيني عمر واحد كي أحرق ظمئي إلى بميّة المدائن... عصيّة المدائن؟ هل يكفيني زمن واحد كي أكون إنسانة هذه المدينة القانعة بوجودها؟

أحـــسّ أنني عابرة في هذا الزمان... أحسّ أنني الحاضرة الغائبة الـــتي يملؤهـــا النسيان. هي لحظة كتب أن أفد لأراها... لأحياها ثم أقفـــل راجعة هكذا وكأن شيئا لم يكن. أحيانا تفقد كل الأشياء في نظـــري أهمّيـــتها الدنيا وجدواها وفي أحايين أخرى أتشبّث بأبسط أشـــيائي. أحضنها وأرعاها لأنها تدحض إحساسي بالفراغ الدامي. ومـــن جملة أشيائي بل من أهمّها المكان الذي لا يمكنني البتة الاستغناء عن شعوري المتدفّق به.

أشعر أن كل الأماكن ملكي أنا. أحبّ كل الأمكنة حتى التي لا أعـــرفها.هـــناك سحر غريب يبعثه في نفسي المكان الذي تتجلّى لي أســـراره بتخف متواطئ فأكاد أنصت إلى رجع همساته الحميمة لي. هـــناك أمكنة تحتفي بي. أرى سماءها تضحك فوقي وحيطان أبنيتها الخرســـانية الكـــامدة تـــبرق. ألمح أشجارها تمد لي أغصانها الجرداء والوارفة كي تحتضنني وتزغرد في أذني بصوت خافت... خافت حتى لا يـــتفطّن العقّـــال إلى جنون الحقيقة ولا يفرّون رعبا من أمكنة لا يقبلونها بغير صمتها والجمود. وهناك أمكنة تمقتني. تتهجّم في وجهي وتطلق نعيقها الذي يقرع دون رأفة سمعي فتصطكّ ركبتاي وتتسارع خفقـــات قلبي ثم يغشاني عرق بارد كالجليد. تصرّ هذه الأمكنة على طـــردي مـــن حيزها الشاسع ونادرا ما عاكستها لأنني أؤمن بحرية المكان المطلقة في قبول أو رفض الذين يطؤون ترابه المسك الزعفران.

يحـــزنني ذلـــك إذ أنني رغما عني أجدني سلبيّة إزاء شعوري بالنفي والإقصـــاء واللفظ من أرض يثير في صمتها الضاج شجونا لا تحتكم إلى رحمة ترجى.

أنا أحبها... أنا أعشقها. أنا مولهة بها حد الغثيان أحيانا، إذ إن أنـــا أيضا كرهتها من سيجرأ على حبّ هذه المدينة المنبوذة المنتهكة؟ هـــل سيحبها أولئك الذين ينهبون فرحتها ويخرسون شذوها العذب الـــزلال ويجتثون الضوء من عينيها الدعجاوين؟ كل شيء مقرف... مقـــرف إلى درجة التقيّء... كل الأشياء حتى تلك القريبة إلى قلبي تدعو إلى اللفظ... كل شيء أعمى... جامد... غائب... أخرس... أصمّ وكل الذين يعترضونني خيالات واهنة لا تسائل نفسها عن الآتي المكشّر عن خرابه... أطياف هائمة... مسلوبة لا تكلّف نفسها عناء البحـــث عما سقط منها في أنفاق الحاضر الغريب عنها... المتشعّب. والحاضر مينوتور. وأريانا التي كان حلمها بالوفاء والحبّ وبالا عليها عزفـــت عـــن مسك خيط النجاة للذي سيتركها نهبا للمجهول بعد خلاصـــه. ما أحقر ذاكرتنا... ما أخسأها! ما أسرع نسياننا في هذا الحاضـــر البلـــيد الذي يقتات بالجثث المتعفّنة أنتنة وتلك التي تنبض حـــياة، ثم موتا زؤاما في مدائن صامدة أمام ترسانة متوحّشة من زيف وخديعة.

أخـــاف يا سيّدتي أن يلحقك مصير المؤتفكات. أرتعب من أن تطـــلي بالقـــار وأن يحرقك بالكبريت، المخصّب بإذنه قصاصا صانع البسيطة في سبع متتاليات حتى يمتد العذاب... حتى يبرق في العتمة... حتى يرى بالعين المغشيّة... حتى يحضن جنبنا متعفّنا في الرحم العقيم المتلظي شوقا إلى الخصب والإزهار... لا أراه عاجزا عن الإنتقام لك لما أصابك من حيف صرت تنوئين به يا شبيهة إرم وسدوم وعامورة.

* * *

لــذت بك هذا العشي كي أحكي لك. أعرف أنّك تسمعينني بانتــباه كامل. لا أحد يصدّق أنّك تحبّذين الإنصات وتواسين الذين بهــم كــرب من أبنائك المحبّين وحتى الضالين سبيلهم إليك لا أحد يســمعني في هــذه الأيام غير نجيب عبد الباري وهو غائب منذ فترة لمواكــبة فعاليّات المسرح التجريبي ببلد عربي شقيق. كلّهم يشيحون عــني بأفــراحهم المشلولة الباهتة التي تملأ عيونهم المطفأة وبأحزانهم الموشــومة الــتي تمضغ بملل ضحكاتهم البائسة. حتى سعيد... سعيد اسماعــيل الزيتوني... أجل سعيد تركني نهبا لقهر النسيان وفرّ. الكل يتصــوّرن أنــني مخــبولة لكن رأيهم الصفيق لا يزعجني كثيرا لأنهم غائــبون رغم عرائهم الذي أريد أن أحكيه. وأنت يا سيّدة الجميع رغم ضعفك... يا هبة السماء والشمس والقمر... يا قلب الله الذي لا يــتوقّف عن الخفقان... وأنت... هل تظنّين أنت أيضا أنّني...؟ لا... لا. لا. لا تــبوحي بمــا لا طاقة لي على تحمّله... إذ لم يبق لي غيرك الآن أشكو له غبني.

هربــت مــن زكــيّة منذ ساعات قليلة. هاكم زكيّة يا سيّاح مديــنتي المصــغية إلي أقذف بكم في لجّ بحرها الأهوج ولو لدقائق. تحمّلوهــا نــزرا تافها من الزمن فأنا قدّر عليّ أن أتحمّلها دهرا لأنها رفــيقتي في العمل. لقد قدّر عليّ أن أحيا مكرهة تحت رحمة سطوة كــذب زكيّة الذي يخور عليه حتجاجا بقر العالم كله قبل أن يلحقه جــنون هــذه الأيّام الدهماء هو الآخر. الجنون طال حتى الهوام... وأســياد هذا العالم... أدرانه... نفاياته... ما زالوا غافلين في غيبوبة دنياهم... لا يولون بصرا لهول الكارثة... الكارثة المحدقة... الكارثة المكشّرة عن أنيابها الحمراء على بعد زفرة منّا.

مــا أكثر ما ألتقي زكيّة وكلّما رأيتها تتملّكني رغبة مضحكة مخبولة. أود لو أجرّها من شعرها القصير الذهبي المصفّف بعناية فائقة

وأطـــوف بهـــا شوارع المدينة شارعا، شارعا وأزقّتها الملتوية الضيّقة زقاقـــا، زقاقـــا وبيوتها التي تعرّش في باحاتها الواسعة الظليلة أشجار الـــنارنج والـــياسمين بيتا، بيتا. أود لو يمد كل واحد يراها يده كي يخمـــش أي جـــزء من جسدها أو يصفعها. أود لو يرى كل واحد يســـكن هـــذه الناحية العتيقة المتفرّدة من مدينتي إلى عراها المخزي فـــيخرج لها لسانه أمتارا ممتدّة بعيدة تتلوّى كالحيّة الرقطاء المتعطّشة إلى قذف سمّها موتا دهاقا ثم يضحك نكالا بخيبتها وإمعانا في قهرها. لكـــن لن يتسنّى لي ذلك. لا يتبادر إلى أذهانكم سادتي الموقّرون أنني أقـــرّ بعدم قدرتي على إتيان شيء من ذلك القبيل. لا فقط أنا أعدل عما أبغي فعله لمعرفتي أن زكيّة لن تردعها حركة مجنونة أو مفرطة في عقلانيتها عن غيّها وستذهب كل جهودي هباء. زكيّة لن يحميها من أقنعـــتها الـــتي لا تعد حام وهي لن يخرس كذبها الفاجر غير انقلابها بدون رجعة عن هذا العالم.

كانـــت معـــي في المكتب. كانت على بعد أميال من مواجعي المثخـــنة تجلـــس، مثل مهرّج سرك. تعلو وجهها الأسمر الذي لفحته شمس المتوسّط والذي غزته في غير أوانها أخاديد عميقة لا تشي بعمر صـــاحبته الصـــحيح مساحيق كثيرة تثير في حاجة ملحّة إلى الغثيان. قناع... قناع خلف قناع... يخفي قناعا... يحجب القناع الألف... مـــا أعسر عد أقنعتها... ما أكبر مساحة القرف تزرعه عوسجا على ضـــفاف أرواح مكدودة لا تنشد غير الأمان. يصلني صوتها المطّط كي يخرم طبلتي أذني اللتين ما أكثر ما سمعتا من أهوال في هذا الزمن العبوس. زيف... زيف... زيف ممضّ لا تتبعه غير نقاط حيرة هوجاء تجرفني نحو أعماق الهوّة السحيقة: "نعيش لكي نرى... بنات الأصل الأثيل مثلنا لا يمكن أبدا أن يجعلن أنفسهن ندّا لرجل يكاد طوله يبلغ المترين حتى وإن كان ناقصا عقلا ودينا. هو جيّد لم يجد الدهر بصنوه

مـــا دام رئيســـنا في العمل. لماذا نبحث عن المشاكل اخيتي والله قد أوصـــانا بالتقرّب زلفى من أولي الأمر منّا؟ "هذا ما قالته زكيّة وهي تـــتوجّه بالكلام لإحدى زميلاتنا بصوت لا تجعله خافتا كي يصلني ويســـمّم بدني كما تتصوّر. عظيمة الأصل هي زكيّة أمّا عديمته، لا غفـــر الله خطيـــئاتها وأمد في عماها وضلالها فهي طبعا لا تعدو أن تكـــون الفقـــيرة إلى العقل الراجح والحكمة. أنا التي تشاجرت هذا الصباح مع ولي أمري طويل المقابر الذي يتلوّى طول اليوم في أروقة مؤسّســـتنا مثل راقصة من الدرجة العاشرة. واطئة الحسب والنسب هـــي أنا التي أتيت من فراغ العدم والتي لم يكن لي أب سليل رجل قـــال لا، وآثر أن يعيش حرّا كريما معتزّا بفقره على أن تكبّله أصفاد ثـــروة احـــتجّ عـــلى أسلوب تضخّمها المشبوه وامّ فرّ جدّها أشهر دراويـــش تركيا بعلمه الذي لا حدود له إلى هذه الديار التي أعشقها لأنهـــا احتضـــنته لاجئا عالما فقيرا ونبيلا. هي دماؤك الزرقاء تسري بلعنات رفضها في شراييني يا جد أمي. هل تعرف كم أحبّك يا جد أبي حـــتى وإن كنت قد أورثتني جنونك العذب يرتع في كل خلايا جسدي الحيّة منها أو تلك التي برّح بها الموت. ألا يحثك غضبي فتقوم مـــن رفاقك كي تخنق هذه الغبيّة الغائبة التي تقول إن أخلاقي رديئة. لأنـــني لا أجيد السكوت على القهر المضيم أصبح وقحة... زمن يا جدّي... زمن يغدو فيه عذابنا الفاحش ضريبة ندفعها لصدقنا ونقائنا لا يستحق تشبّثنا به يا جدّي.

أسمـــع قهقهـــة جدي المنتصب الآن أمامي بقامته الفارعة. أراه يضـــحك ملء بهجته حتى تظهر لهاته ويستلقي على قفاه. أندهش. الكـــبار في السابق لم يكونوا أبدا مهرّجين. كانوا متّزنين تشتهي أن تسمتع إليهم وهم يتحدثون وتتمنّى لو تراهم ضاحكين. يقوم جدي غير مبال بدهشتي. يسترد كثيرا من وقاره الذي يأبى أن يخالفه والذي

تشي به صورته اليتيمة ثم يطلب مني بصرامة أن لا أرضخ فأطمئنه إلى أن حفيدته أصلد من صخرة.

"وتتشـــدقين بكلمة أخلاق كلّما عن لك إرضاء نـــزق طويل المقابـــر" أصـــيح في وجه زكيّة بنفاذ صبر وقلّة احترام. "الأخلاق يا ذات الفؤاد الخاوي والعينين المعبّأتين فراغا مظلما؟ أنت من يتحدث عن الأخلاق؟ لماذا لا تسألين عنها أمّك في كنف من تربّت ونشأت بعـــد أن راودت جدّتك الأرملة أبا العيال وافتكّته من حضن زوجة وفـــية ماتت قهرا؟ لماذا لا تسألين عن الأخلاق أباك، كيف طاوعته رجولـــته أن يغـــتال أمّ ابنه... أخيك الغير الشـــ... دعنا من هتك أعـــراض الموتى... ولنقل أخاك غير الشقيق... ألا تعرفين ابن أبيك الـــبكر... نطفـــته المعابة المرميّة دون رأفة والتي أنكرها أبوك وأنكر الوعاء الذي احتواها في زمن لا تسوى فيه الأنثى غير غشاء رقيق... رقـــيق... هشّ مثل أخلاقكم تماما. أخلاقك... أخلاق طويل المقابر الـــذي أذاق والديه المرار فعاشا وماتا وهما لا ينفكّان يلعنانه لعقوقه المستطير. طويل المقابر ذاك الذي لا يأنف من نفث غضبه فينا كلّما شـــدّت علـــيه زوجته الميدوزا كما تسمّيها نوّارة الحي الخناق غيرة وخوفـــا من أن يهجر جسدها الضخم المترهّل إلى حضن لا يهمّ إن كـــان دافئا أو أكثر قرّا من الصقيع... أخلاق الجميع التي يتغنّون بها بفجاجـــة لا تحتمل... أنا أعاف أخلاقكم بل أنا أكره كلمة أخلاق مـــن أساســـها... سجّلي يا زكيّة وولولي أنني مجنونة ابنة مجنون... حفـــيدة المجانين كلّهم. ليتك تبلغين يا سيّدة العقّال لحظة واحدة لا تعـــاد من جنوني. كنت لا ترضين بأن تكوني زكيّة التي عرفتها والتي لا تتقن غير الافتخار بما لا يغني عن ذل وهزيمة.

لا تقاطعيني ودعيني أبح بما تأخّر قوله كثيرا. وجب عليّ الآن أن أنضو عني ما أثقل على روحي زمنا لم يقصر. إلى الله يعود مال

الله المختلس ولو بعد قرون يا صديقته الوفيّة. ما كان عليك التبجّح بجاهك وأصلك يا أمّ لهيب، تبّت عراقتك المتعفّفة فأنا أكثر من يعرف جوهرها. جدّك كان قاطع طريق يبرّد قلوب وأيادي الضعفاء كما تقول جدّتي جعلني الله فداء لذكراها العبقة ونورا لعيونها المطفأة يوم الحشر. جدّك كان كل ليلة يسطو برفقة شيخ قادتني صدفة تمقتك مثلي إلى معرفته في أحد أرياف بلادنا النائية، عندما استدعتني وإيّاك إحدى زميلاتنا لحضور حفلة عرسها. كان جارها وكان الجميع ينتبذونه لأنه لم يدع ولم يذر لما كان الظلم والظلام مخيّمين على الوطن... بالرصاص كان المستعمر واقفا مواجها أبناء البلاد العزّل إلاّ من إرادة لا تفي بخلاص، وكان في القفا عباس جار صديقتي ورفقاؤه منتصبين لهم بالهراوة والنصل الشحيذ، وطعنة الظهر الغادرة لو تعلمين يا زكيّة مر... ر... ة أجاح تلدغ القلب وتفري الأحشاء. في تلك القرية النائية كان الجميع يحتقرون عبّاسا رغم أنهم يرهبونه لثرائه الفاحش وقدرته الفائقة على إلحاق الأذى بهم ورغم محاولته التقرّب منهم بشتّى الوسائل. وكان الجميع هنا يعتبرون جدّك جازاه الله العلي القدير بما أتى قلبه الجلمد رجلا صالحا صاحب بركة لم يهب الزمان مثله، بما أنه قد زار الأراضي المقدّسة ونحر فداء اسماعيل كبشا أقرن سمينا ثم عاد سالما جالبا معه الخيرات السبع التي أهمّها دن مملوء بماء زمزم ما زالت أمّك تحتفظ بشيء منه تبرّكا وتبجّحا. مدينتنا التي سيخاصمها سراج الله الضاحك في السماء ليلا قريبا، ورغم حبي لها لا تستأهل غير اللعنة والنسيان ما دامت قد خوّلت لك ولطويل المقابر ولتابعيه من الحرابي والحراذين والبراغيث التي تأنف من ذكرها حتى الخنازير النجسة التطاوس عليّ.

خائفة أنا من أن يتصالح ريف صديقتي الوديع مع الأشياء التي لا

تحمل بين جنباتها غير بريق زائف لا يلبث أن يخمد ليخلّف وراءه الضياع والدمار اللذين يركضان نحونا بأقصى سرعتهما ونحن بابتسامتنا التي نصفها بالنبيلة نستقبلهما كما نستقبل الأحبّة الغلاة. خائفة أنا من أن يعانق الريف مدينة شوهاء فتتكامل الصورة الرهيبة ويندثر أجمل ما فينا عندما ينطلق الوحش من عقاله كي يبتلع بلهفة الأخضر والسيابس... القبح المترامي... القبح الأسود اللانهائي... القبح المارد الفاجع الذي لا سبيل إلى تفاديه يرتمي بكل شراهة في أحضاننا الباردة...

الربيع يهرب بالضياء، وكل الفصول التي كانت تأتينا تباعا بأفراحها الهادئة تارة والمزمجرة أخرى ضلّت طريقها إلى مضاربنا، وراحت بعيدا كي تحتضر بيأس وسكينة ونحن لا ندوس على غير الشوك يخز أحشاءنا فيفتّتها ويستقرّ إبرا في العيون المظلمة فيدميها. واقعنا المهان الذليل حنظل ونحن نمضي تزفّنا رياح عقيم لا تأتي بمطر إلى الخواء النائح.

هل دريت الآن من كان أعزّ رفاق عباس يا زكيّة، هل عرفت من كان ساعده الأيمن المخطط لكل عمليّاته؟ قلّمي أظافرك... قلّمي... وسوي الأحمر الذي يخفي زرقة شفتيك المترهّلتين. سوي شعرك الناعم الجميل عسى أن تخرج عينا ذاك الأجوف من محجريهما كما يفعل مع كل أنثى تصادفه فيسيل لضحكتها لعابه يا ذات الحصب والنصب.عباس هو الذي فضح لي حقيقة أصلك عندما تذكّر أنّك الطفلة التي طالما لاعبها لما كان يزور جدّك في ذاك الزمن الغابر الذي يأبى أن يمضي دون ترك آثاره الدامية على جدار الروح. عجبا للحقيقة كيف ترضى أن تطمس كل هذا الزمن ما دامت حقيقة. عندما كان الرجل يروي لنا قصّة عباس بابا والمليون حرامي الذين يسرقون ربيع بلدنا كنت أنت ترقصين ملء غفلتك المستمرّة،

وما أطولها غيبوبتك يا رفيقة عملي الزفر التي كتب عليّ تحمّلها.

قبل أن أخرج وأتركك مضغة لألمك ودهشتك المصطنعة أريد أن أهمس لك رغم صلفك البادخ. كفي عن أن تكوني مغفلة يا زكيّة. طويل المقابر الذي لا أدري ماذا يعجبك فيه كثيرا ما قال إنه مل تصرّفاتك المتصابية. عفته حينما سمعته يقول ذلك لإخلاصك المتفاني لقبحه... عفت رائحة فمه الأدرد التي أتتني مختلطة ببقايا رائحة خمرة لا أدري إن كانت باهظة الثمن أو رخيصته... كرهته يومها حد التقيّء ليس من أجلك ولكن بسبب نذالته التي لا تحد، وطردته من مكتبنا لفراغه المدقع الذي لا طاقة لي على تحمّله وهو لذلك صار يفضّل رؤية صديقه إبليس على أن يراني.

"يا ما في الجراب يا حاوي!" ما زال في جعبتي وربّ الآجلة الآزفة كثير الكثير يا زكيّة لكنني أربأ عن تعذيبك. فقط أنا أبغي أن تنفعك الذكرى وأن تحفظي روحك الهزيلة من عماء النسيان.

* * *

المشي تحت سماء رصاصيّة تنفث في صمت كئيب دموعها اللؤلئيّة يعمّق في دواخلي السحيقة الإحساس بغربة ووحدة وعدت بهما مذ فتحت عيني على هذه الدنيا.

الرذاذ يهمي هسيسا وأنا وحدي أجوب شوارع المدينة التي تنكمش على أحزانها الموروثة. الرذاذ يهمي خفيفا... خفيفا... ناعما وأنا صفوى الحامد أتيه في دروب المجهول الملتوية المتعرّجة بدون هدف معلوم. الرذاذ ينشج خافتا وأنا أنثى الضوء والغبار تلوكني المسافات الشاسعة ويمضغني المدى البعيد على مهل بأسنان من حديد. الرذاذ يهمي تحديا جارفا وانعتاقا وأنا أمرأة الماء المتدفّق أتضوّر عطشا في غياهب صحراء ممتدّة لا حدود جليّة توصلني إلى منتهاها.

يـــا أيهـــا الجـــرح المحفور النازف صديدا... يا لعنة الشتات المريـــرة... يـــا صـــفوى... يا وجه حياتنا الرديئة... يا ضنى أمي الصامدة... يا ابنة رحمها المظلم... متى سيقدّر لك البرء؟

مسكينة أمي. كيف استطاعت إيواءك أحشائها كل تلك المدّة؟ تسعة كاملة حضنتك أمي في رحمها زوابع شرسة وأعاصير من شرر ولهيـــب. تـــبرّح بجسدك الضئيل اللزج الذي لن يستوي أبدا أحزان الأيّام القادمة. تفتّتت ونـــزلت لحما طريّا ودما متخثرا ثم يابسا كذا مـــرّة لكـــن إصـــرارك الغريب ينتصر في النهاية فيشهق أبي بفرحته المخـــنوقة وتـــتلألأ أمي غبطة بالغائبة المكلومة التي وفدت مثقلة حد الارتعـــاب بالهزيمة والانكسار. كنت لا أعدو أن أكون مضغة عندما سمعت أمي تغنّي:

مضى على حملي بها

ثلاثون قرنا ونيف

ما زلت أذكر

وامضة أراها مثل برق

عابرة أحسّها

مثل حلم ناعم

كذّب جل النبوءات

ثمّ سمعتها تشدو إذ أزف موعد وضعي:

عاقرا تهامسوا

ثمّ ولولوا

لمّا أخصب في غفلة منهم عقمسي

ورحل على غرّة
الذين انتظرتهم آمادا
قبل أن يشبّ منهم العود
وتزهر في الفرحة
قالوا تأكل أكبادها
والله!
والله! لا يشبع أمّا من قرم ادّعوه
غير فرحة تعبق كما الربيع
في مآقي طفلة الضياع
التي أراها وافدة
سأفتكّها من براثن الموت
وأدعو باليباب
على بوم إختار أن يعشّش
في ظلالي

* * *

يـــا مجـــنونة تشتاق إليك المدينة التي تلتهم أبناءها الوفيّين خوفا علـــيهم من الطوفان. تبتلعهم عيناها الشاسعتان بحنوّ وتغلق الأجفان عـــلى أوجـــاعهم الضـــارية وسؤالهم المتمرّد. مسكينة يا أمي... يا مديـــنتي... يأخذك ويأخذني البوح الحرام إلى الأنحاء القصيّة الملعونة فأتمـــادى في إغفـــاءاتي الطويلـــة المقصودة وأغمض على تباريحك وتباريحي الوسيعة القلب المنهك.

أنا أنثى تعشق المطر... تغرق في الحبّ كل رفّة عين... أنا امرأة تتوه في انفصالها الجليد وأنا صفوى الحامد... بالأمس كان لي رجل وكـــان يحبّني كثيرا أيضا... هو الذي في صمت طالما باحت لي عيناه بالوســله. ذاك الرجل وهبه لي الله ذي الكرم العميم. في لوحة المحفوظ كتـــب يوم أن تشكّل علقة: "بعد سنوات ثمان ستأتي إلى هذا العالم أنـــثى يختـــار لها أبوها من الأسماء صفوى. صفوى الحامد لن تكون أمـــرأة لغـــير سعيد... سعيد اسماعيل الزيتوني سوف ينتظرها ملايين السنين وسيبحث عنها في ملامح كل العابرين. لن يحبّ أحد سعيدا قـــدر ما تحبّه صفوى مهما حدث". لا شكّ أن قدري الموصوم بلعنة الغربة والإقصاء سيمحو تلك الحروف المكلومة.

سعيد اسماعيل الزيتوني رحل... لا شكّ أنّكم استغربتم أمري. لمـــاذا لم أحـــك لكـــم عـــن سعيد منذ البداية؟ وهل كانت بيننا بدايـــات...؟ لا... لا... يجـــب أن نحدد بيننا هذه البدايات حتى لا يقهرني رعب النهاية... أنا لا أريد أن أفارقكم لأنني أحبّكم... والله أنا أحبّكم... صدّقوا وأنا لا أستجدي شتات حبّكم... فقط دعوني أعش فرحتي المختلسة برفقتكم. سعيد؟سعيد رحل. أجل وأنا أخفيت عـــنكم أشياء أخرى كثيرة ستعرفونها مفصلة لاحقا. أنا صفوى التي هجـــرها سعيد اسماعيل الزيتوني ولكن نجيب عبد الباري ظل كعادته دائما بقلبه الرحب يشد عضد أحلامها السقيمة الواهنة.

أنا صفوى الحامد التي أضحت منذ بضعة أشهر تضيع فجأة في شوارع مدينة طالما ارتادتها محملة بالحنين الطافح والأنين المكتوم وأنا صـــفوى الـــتي منذ سنتين بثدي واحد أيسر فقط ترقص كل ليلة في نهايـــة الأســـبوع عـــلى الركح مثل آلهة من ضوء متدفّق أمام مئات المحبّين... العابرين... الضائعين في تلافيف غيابها.. أنا صفوى الماشية الآن في شـــوارع هذه المدينة... الخائفة... المرتعبة من أن تقف فجأة

فتتذكّر... أنا صفوى الهاربة إلى حكاياها البسيطة البعيدة حتى تنسى ما لا ينفكّ صمت حيطان هذه المدينة التي تتلفع به حدادا على أفراح تـــوءد كل لحظة في هذه السنة العجفاء كسنوات أخرى ولّت يزعق بـــه. أنـــا صفوى أبكي قهري وعجزي وأنعى نفسي وأرثيها، وأنا صـــفوى التي تخونني اللغة الغبيّة فتمنعني من الخوض في لبّ الحكاية خوفا من فضح عار عربي.

* * *

الفصل الثاني

الأغنية الثانية

نجيب عبد الباري يتطهّر من هوس وجعه بخوض غمار الخطيئة

لم أرهـــا أبدا في السابق. تعبر الردهة بخطواتها الواسعة الواثقة. وراءهـــا أملق رغم إنهاكي الشديد بسبب إصابة البارحة. كنت قد ســـئمت إعـــادة دوري في مشهد يلهي خلاله المهرّج الملك بحركاته البهلوانـــيّة عن حيطته المعتادة كي يغرس في أحشائه نصلا سلّمه إيّاه خفـــية عن الجميع ابنه الطامع في الإستيلاء على العرش وعلى جاريته الفاتنة "قوت القلوب" التي تشغّفت الرجلين فألتاث الأب وامتلأ قلب الابن الحجارة قسوة وضغينة.

كـــان يجب أن أغتال الملك وأنسى أنني والجميع قد بايعناه على الولاء المطلق الذي لا سبيل إلى التنصّل منه. كان يجب أن أقتله غدرا رغم أنني مملوء حد الثمالة بصوته الجهوري المجلجل في كل مناسبة مذ كان يافعاً: "لو كان الله لا يحبّنا ما كان أوكلنا أمركم. من حاد عن طوعـــنا فقد حاد عن أمر الله الذي بوّأنا هذا المنصب العظيم فيكون مآلـــه لعصـــيانه إذا ما رجع إلى ملكوت ربّ العالمين جهنّم وبئس الميعاد".

لم أتمكّن من تأدية الدور بإتقان أنشده. الشخصيّة وهي محوريّة لكونها حاضرة قبل موتها المعلن وبعده في جل المشاهد تقريبا لم ترق

لي فاعترضت على وجودها أصلا في المسرحيّة، إلاّ أن المخرج أصرّ على موقفه مؤكّدا على أن المهرّج حتى وإن كانت فكرته كلاسيكيّة نشأت منذ أزمنة بائدة ظل مفهومه غائما ومهمّشا في الظاهر فقط، لكنه في حقيقة الأمر غالبا ما يكون فاعلا في حياتنا فاعلا سلبيّا في كثير من الأحيان. بداخل كل منّا مهرج نرفض أن نفكّ أصفاده خوفا على مصالح حفظتها لنا منظومة اجتماعية قذرة لا تبالي بإنسانيّتنا التي فقدت توهّجها. في ذلك الركن الخفي المظلم فينا يقبع مهرّج نرفض التمعّن في وجهه المتهجّم وتعرّف ملامحه الكئيبة التي ترثينا خوفا من الإنزلاق إلى سحيق هاوية نتجاهل بإصرار أنها تفغر فاها لهما للالتهامنا.

لكن ماذا يهمّني من مهرّج لا يتوانى عن التملّق إن مكرها أو قانعا لشهوات أب رعديد ولنزق ولي عهده الفاحش في البداية ثم يغتال طاغية عجوزا ويغرق في دمها المتعفّن المسموم الراكد كي ينصّب مكانها طاغية أكثر فتوة وظمأ إلى الظلم المتستّر بالتقوى والورع؟ والحكّام بأمر الله كثيرون... كثيرون مثل قرش البحر لا يمكن إحصاؤهم. ماذا يهمّني من الحكّام بأمر بركاتهم ومن أفكار صديقي المخرج التي تبدو لي أحيانا مفرطة في السذاجة وحسن النية؟ صديقي ما زال مهووسا بفكرة ضرورة مكافحة الحشّاشين والبصّاصين والجيوش المأجورة المخصيّة التي تجري وراء حتف الأبرياء العزّل. هو يقول إنه ما بقي بحوزته غير كلمة شهيدة يصرخ بها على خشبة المسرح ليتيقّن من أنهم لم يسرقوا انتماءه إلى نفسه على الأقلّ: "أنا بلا وجه... أنا بلا وطن... أنا بلا هويّة تذكر... أنا بلا إرادة إذن عليّ أن أعزّز انتمائي لإنسانيتي بأي شكل حتى لا تخجل مني إن أنا تنازلت عنها... أنا إنسان ضعيف. أنا إنسان لا أملك شيئا... أنا إنسان لا أفعل شيئا قد يشفع لي أمام كراميّ... لكنني إنسان رغم

ذلـــك... لكـــنني وإن كان الصراخ وحده لا ينفع ولا يغيّر إلاّ أنني أصـــرخ ملء رفضي كي أسمع صرختي الموؤودة مهما صمّت الآذان. "هكـــذا كان يحكي صديقي أما أنا فإني بتّ أخجل من الخوض في مـــثل هـــذه الأمور. القضايا التي كانت بالأمس القريب في نظري مصيريّة ومقدّسة أضحى ذكرها اليوم يثير فيّ التقزّز والغثيان. يبدو لي أن هـــذا العصـــر حكم على الأفكار الجميلة التي تضفي على الحياة رونقا آخر مختلفا بالتآكل والتدهور والإنقراض.

مـــات شي غيفارا... غدروا به فكان مسيح هذا الزمن الذي شـــيّد معبده شاهقا في قلوب عمرها الخواء والخراب... رحل مارتن لوثـــر كينغ وباتريس لومبا وصالح بن يوسف وكمال ناصر ولزهر الضـــاوي بعد أن ثقبوا قلوبهم حقدا... فرّ من ساحة الخديعة خليل خـــاوي وســـليمان خاطر وسكت عن الخفقان قلب سناء المصري المعلـــول بعد أن أعيتها الهزيمة. لم تفرح بالفرجة على فضيحتهم إثر كشـــف جمعيّاتهم المشبوهة فجاء طعم شماتتي مرّا مثل موتتها السريعة المفاجـــئة. ماذا بقي في هذا الزمن المدقع المخروم بعد أولئك البعيدين الآن؟ فـــرغ القلب من كل الأشياء المنيرة. تعبّأت الروح الثكلى حد التخمة بالفراغ المريب والصدى الموحش والهياكل المحنطة.

لم أعـــد أكترث بشيء خارج حيطان المسرح. المهمّ عندي فقـــط هـــو أن أقف على الركح كي أغيّر جلدتي وأصبح آخر لا يشبهني إذا تعرّى. المهمّ هو أن أشعر بدفء أنفاس الذين يشبهونني فيتوافدون على قاعات المسرح زرافات بحثا عن منفذ آخر مختلف ينفلتون بواسطته من قبضة اللحظة الداهية التي تشد على أرواحهم المعذّبـــة الخـــناق. المهـــم هو أن أحرّر أنفاسهم من غدر النسيان وأنقذهم من هول السقوط في قاع الغيبوبة السحيقة. ولذلك كثيرا مـــا تجدني أنشد أدواراً أبحث فيها عن منافذ فسيحة أفتحها على

الضـــوء الغامـــر فأمسك حينها والذين تحمّلوا عنت الجري وراء نفوســـهم المتمردة باللحظات المشرقة البهية الفارة من براثن هذا الزمن اللعوب وهذا الفضاء الخانق أو..و..و..ه يا صفوى ما أقصر عمر الأشياء الجميلة ماذا لو أنها امتدت قليلا؟ قليلا جدا طبعا حتى لا نـــتعود علـــيها فتصبح مملة وتدخل ضمن خانة الأشياء التي لا نفكر في الحاجة إلى البحث عنها. سرعان ما تغتال عسفا لحظاتنا تلـــك البـــارقة المسروقة وتتركنا لدهشتنا ولصمتنا العاجز المطبق لكنها تظل الأقرب لذاكرتنا المهشمة.

أنـــا أمقت التعود، لذلك أنا أكره أحيانا كثيرة أن أكون نجيب عبد الباري فأفر إلى الشخصيات المسرحية التي أخوض غمارها بكل عمق وصدق حتى وإن كنت لا أتوافق مع ميولاتها وآرائها. أنا كثيرا مـــا أخـــون نفســـي عـــندما أكون على الركح لكني لا أغدر أبدا بشخوصـــي لأنني أمنحها كل حبي. أحيا في فنائها الآني على عجل ممـــض. أهـــبها كل نبضة فيّ. أتوحّد معها وأتخبأ في كلامها المؤجل الفهـــم غالبا. أنساني. أموت كل لحظة كي أملؤها حياة واخضرارا. أتـــوه في اشـــتياقها إلى معانقة العدم المتلىء فضيحة وعارا وأشياء أخـــرى لا تعبني معناها بسهولة، لهذا السبب فقط ولجدية نجيب عبد الباري المفرطة في عمله يتهافت مخرجو فرق العاصمة الهاوية والمحترفة عـــلى اســـناد اهم الأدوار في أعمالهم المسرحية التي يحدث أن تكون رائعة له. هم يصبرون على تدخلاته المحرجة ونـــزقه الذي لا يراعي غـــير رؤيـــته فقط إكراما لتفانيه في عشق المسرح إلى درجة الذوبان والتلاشي.

أحببت المسرح يا صفوى... عشقته حد نسيان ذاتي لكنه حتى الحـــين مـــا فتح لي صدره الرحب كي أكون. إن الحركة التي بها أنا أريد أن أحكي ما يجيش بأعماقي السحيقة بعيدة... نائية... قصية لا

يمكن المسك بها كاملة.

الحـــركة... الكـــلمة... همسة الفرشة المطواع للألوان الوليدة وللظـــلال التي يختال في حيزها المختزل الاندهاش العنيف المدمر كل هـــذه الوسائل التي ما غفل عنها الإنسان الأول ظلّت حائرة أمام قوة الحقـــيقة... قد يبلغ الإنسان سبلا متعددة لكنه يظل يقطع المسافات الممتدة وحشة وغربة لا تمن دون أن يهنأ بالوصول إلى ذاته الجامحة... الشريدة... الناشزة في فضاءات بعد آخر لا قدرة له على اللحاق به مهمـــا كانت مداومته عظيمة، هو يدركه فقط بأحاسيس متحفزة لا تلبث هي الأخرى أن تنطفئ إن هو حاول تعريتها وكشف مخبوئها.

كـــل وســـائل التعبير المتداولة والمختلفة مهما بلغ رقيّها ومهما سمـــت حساسيّتها تظل واهنة... فقيرة إلى القدرة الكاملة على التبليغ الـــناجح. بمائة عين ثاقبة... لا بل قولي بألف عين وكثير يرى الفنّان لكنه في النهاية يكتشف أنه لا يحكم قبضته على غير الفراغ يتسرّب بـــين أصابعه المتشنّجة ويندلق ليملأ عليه عالمه المترع وحشة سأما... وضلالا... وهزيمة.

وأظل أنا أجري جاهدا وراء ذاك الجزء النقي الذي يتلاشى... أقـــتفي أثره لكنه يتبخّر عندما أحاول تجسيمه بكل الوسائط الممكن خطورها على بالي... إن ما يجيش ويضطرم بداخلي حينها يرفض أن يـــدرج في خانـــة الموجودات التي تتقبّل الفرجة والنقاش والنقد. ما تكتبه خيالاتنا الجامحة على صفحات نفوسنا التائقة إلى التحرّر فجأة في لحظـــة غفـــوة يقظة يصعب غالبا نقله إلى الورق أو على الخشبة بأمانـــة، لذلك تريني ملتاعا يا صفوى أبكي أشيائي الجميلة المتوهّجة بداخـــلي ثم المنطفئة بعد أن يعسر عليّ مخاضها فلا تأتي في النهاية إلاّ عـــلى قدر هيّن من الإقناع. أنت تستطيعين أن تنجبي طفلاً من لحم ودم ويمكن أن يكون هذا الطفل ذا جمال وذكاء يجعلانه سويّا بديعا

يغبطك عليه الآخرون لكن أن تنجبي فكرة كاملة صافية فذلك ما لا مجـال إلى تحقيقه. إسأليني أنا يا صفوى. إسألي ليالي الطويلة السهد لـتعرفي أن الـلحظة الحقيقيّة الكاملة التي تصهل بداخلي فأهفو إلى معانقتها هي تلك التي لا أمل البتّة في الإمساك بأطرافها.

لم أتمكّـن مـن أداء الـدور على وجه يرضي غرور المخرج وآقتـناعي و لم أقـدر على إخماد أنفاس السلطان الغبي ونحوت من مقصـلة بـاردة هيّأها لي ابن الملك الوحيد مذ غازلت الفكرة ذهنه اللامع. ابن الملك الوحيد المدلّل سينتصر طبعا لدم أبيه المغدور به وهو لـن يغفر لي الجريمة التي ارتكبتها في حق ولي نعمتي. لن أتقن الدفاع عـن نفسي بعد أن يسمل الأمير عيني ويقطع لساني فور انتهائي من أداء مهمّـتي. لـن أعرف وجهتي ولن تجدي همهمتي المكتومة ولن يعـترف أحد ببراءتي حتى وإن بانت الحقيقة صارخة زاعقة. سوف تقطّـع أطرافي وتستخرج أحشائي كي تأكلها الطيور الكاسرة. بطل هـو ابن الملك طبعا والنذل هو أنا بدون شكّ لذلك فأنا أستحق ما آل إليه مصيري. ليس هناك من هم بمثل نبل أصحاب الجاه والسلطان. لا يمكـن أن يوجد أبدا من هم بمثل صفاقة المهرّجين حتى وإن كانوا يجيئون على هامش أحداث عمياء سطّرت كي تسحقهم دون رأفة.

الأصالة... النبالة... أجل النبالة لم تعد تلك التي لا تتحقق بغير احترامنا لذاتنا ولذات الآخر المضطهدة المسلوبة. النبالة أضحت اليوم سـلعة رخيصة تباع وتقتنى في سوق النخاسة بأبخس الأثمان وأرذلها. عمـي صباحا يا سيّدة المقام الأثير لا ينمّيك غير زحفهم على أربع كسـيحة... عمـي مسـاء يا سيّدة المسالك الضليلة يغذّيك ذلهم المـتعجرف الأعمى وخزيهم المشبع عارا وفضيحة. عمي الدهر كله يـا بغي عصرنا الزائف صرت مطيّة رؤوما تركبك قردة تنضح عطنا ونسـيانا. انعمـي وتمطي يا نبالتهم إذ بعد غربتي التي تجرّعتها دمارا

فاجعا ما همّني أن يغرق العالم بطميمه في الدهماء.

إثـــر حركة خاطئة تدحرجت بعنف على الركح فالتوت ساقي وانتفخ كاحلي. كان الألم مرّا لكن الإصابة لم تكن جدّا بليغة لذلك اكـــتفى الطبيـــب بوضع ضماد على كعبي المتورّم ونصحني بتجنّب الإفـــراط في المشـــي لبضعة أيام. لحسن حظي سأكون غدا في رواق عـــرض صديقي سعيد اسماعيل الزيتوني أشد أزره في اليوم الأوّل من افتتاح معرضه التشكيلي وأقدّم له بعض الزائرين الذين سيفدون عليه. أنا أعرف تقريبا أغلبهم. بسبب ارتيادي لهذه الفضاءات التي يقولون إنهـــا ثقافـــيّة صارت وجوه روّادها الشاردة نظرات معظمهم غالبا مألوفة لديّ.

مـــا خالفني الحظّ السعيد هذه الخطرة أيضا لأنني سألتقي زفرة الـــروح المـــنهكة الكسيرة. صفوى وردة الملح البكر وتنهيدة الرياح العاتية الجموح إذا ما سلّمت نفسها ضنبّة مجهدة للسّكون الناهش.

* * *

تمشـــي في الـــرواق المقفر إلاّ من قليل من الزائرين بخطواتها الواثقة المرتبكة. أجرّ ساقي الثقيلة المنتفخة قليلا عند الكعب الآن حـــتى أكون على مقربة منها. أتمعّن في الأثناء في تفاصيل الجسد المســـبوك الـــذي يحجبه بحياء فستان طويل من قماش قطني ناعم مشجّر. الفستان ذي التصميم البسيط ينساب مع الجسد المنحوت بحنان هادئ فتضفي ألوانه الزاهية على تقاطيع الوجه البارزة مسحة جمال غريب لا تعرف له شبيها يملؤك حيرة وسؤالا ورغبة لا تدري كـــنهها. الحـــزن النبيل الطافح تمرّدا واحتقارا والاستغراق في تأمل اللوحات يجعلان من الوجه العادي التقاسيم وجها آخر مشبعا ضوءا

يذكّر بآلهة الأساطير اللاتينيّة.

لم أقل لك مرّة واحدة إنّك رائعة البهاء لأنني دريت منذ البداية أنّك لن تصدقي يا صفوى. فهمت أنّك أنثى تشرق من أعماقها لأنها ظنّت باكرا أن الجمال المرئي... ذاك الجمال الباهر البائس الذي تتباهى به معظم نسائنا الشرقيات ببلادة مفرطة لا يشغلها كثيرا. لكنّك جميلة رغما عن يقينك وأنت تريدين أن تكوني جميلة حتى وإن رفضت الاعتراف بذلك. كان يجب أن أهمس لك بتلك الحقيقة التي لن تغيّر من أمر رأسك المتكلّس الحجر شيئا.

عيناك... عيناك الليليّتان اللتان تتوهّج فيهما كل نجوم السماء، من أين يجيئهما ذاك الحزن الصاخب أيتها الغجريّة الضائعة المتهوّرة التي حثت الصليب ذات زمن بعيد على الغناء الحزين. يا روحه المسفوحة هدرا هناك... يا أحجارهم المبصرة بعيون لا تغمض... يا ذاكرتهم الهائمة التي لا تموت... يا جنّة العريف... يا قصر الحمراء... يا جامع الزهراء الزاهرة... يا أطلال أبناء عمومتي الشامخة، هل رقصت التياعا من جورهم على بوّابتك العالية ذات عرس دام أنثى تغري ضحكتها الصافية بالبكاء؟ هل غازلت بهاء عرش أمرائك ذات شدو شاجن أنثى تشبه في كل أشيائها الحميمة الممعنة في الغربة والوحشة صفوى الحامد؟

وقفت صفوى أمام إحدى اللوحات تتملاّها بدهشة وشغف مجنّح. كانت كل الأشياء ساكنة في تلك اللحظة المنفلتة من عقال الركود وكان ينبثق من السكون البادي للعيان صخب يحلق بالروح في الأقاصي... هكذا عرفت صفوى الحامد... من هناك وفدت إلى عالمي فانهمرت مدثرة بصقيع كآبتها المتوحشة التي تمت في ثخومها الممتدة. من لوحات إسماعيل المعروضة وتلك التي تزأر وتتلوّى عذابا ونشوة في مرسمه بإحدى ضواحي باريس التي كثيرا ما أستقبلتني ببرودة قاسية

مـــروّعة قفز لي وجه صفوى المتفجّر عناء وسأما وبهاء... من حلمي البعـــيد الـــذي خالف كوابيس ليلى الطويل انحبس لي ضوء صفوى المؤتلـــق فغمرني... أغرق الآن في لجاج أفراحي المنتهكة وتسقط من ذاكرتي كل مناظر قميئة تصفعني أني حللت. أتخلص قليلا... قليلا من إحساســـي الفظـــيع بغبن موحش ينهشني بدون هوادة. لا قهر الآن يخدشـــني ويلعـــق دمـــي... لا عماء يحجب عني الرؤى... وأرحل.. أرحـــل... أصـــاعد شـــاهقا شادّا بالروح المرفرفة على زهرة اللوتس المتضـــوّعة ألوانا بدائيّة لا تكمد.. أحضنها... أطوّقها بذراعي هاتين الممتلئتين حياة الحين... أسمع خفقات قلبها الحرير المتسارعة التواتر... يلفـــح وجهـــي المتفصّد عرقا وانتشاء لهاثها العبق... أنصت إلى رجع إحساسي الوجيع تنبض به كل نأمة فيها... أحملها بأحشائي عصفورا برّيا شاديا متسامقا... ينضح نقاء يدعى صفوى.

بســـرعة قصـــوى مثـــلما تعاليت منذ لحظات بارقة أهوي... أهوي... أسقط لكي أرتطم بمرارتي وفجيعتي ثم أتهشّم. أصير شظايا تذروني عواصف هوجاء لا ترحم و... مطر

مطر... بعد مطر

يطّرد في البكاء

وذا الغريب... هنا... أنا

المكابد خطيئة آدم

لا أرض الله الوسعى

تحضنني

ولا الحبّ ضفاف آمن

أيمّمه

إذا ما السبل الشائكة

لا تحنو عليّ

زوابع... إثر زوابع... إثر ريح صرصر عاتية

تهيج مدى حزني الفاتك

وأنا الموات البطيء هنا

لا الروح السقيم عن غيّه يرشد

ولا النفس الكسيرة

عن الشجو المباح

ترعوي

عواصف... إثر ريح عقيم

تسير بأمر مواجعي المتوهّجة

ترجّ أواسي سكينتي الضالة

فتلتهب في أحشائي المفتّتة

الضغينة

صفوى لن تكون لي لأنني لم أفلح يوما في أن أكون لأحد. لا أدري كيف يمكن لروحي الكسيرة هذه أن تستمرّ رغم إحساسي المدمّر بأنني منعدم ورغم عكوفي على أن أملأني نقمة وشرّا وحقدا بغيضا حتى أتخلص من فراغي الموحش الذي يطوّقني بسلاسل من قرف. ولكنني رغم هذا أصرّ على أن أجتاح على صفوى وحدها التي تصرخ بها كل حركة فيها.

* * *

مـــن الألـــوان الولـــيدة المتحرّرة تجلّت لي صفوى كأعذب ما يكـــون. الألوان عند سعيد هي ذاك الوجه الذي يتستّر وراء ما نراه دائمـــا ولا يكفي أن نمتلك ستر حجاب واحد كي نصطدم به. يجب أن نكون ذوي عزيمة فائقة كي نخوض غمار التحدي الذي يكون فيه الانتصـــار غـــير أكـــيد المنال. الألوان الجديدة التي يحتفي بها سعيد ويرمـــيك بحـــنوّ في لجّ أمواجها المتلاطمة المتوحّشة هي الوجه الآخر لعالمـــنا المحمـــوم. منها تينع مدلولات صارخة متمرّدة تمنح الأطياف الســـابحة في الفضـــاءات الملغزة المشحونة رهبة صفاء نورانيّا خالصا يجعل المتمعّن فيها يمتشق نشوة الانعتاق المطلق البارق لخوض مجالات أخـــرى ممتدّة لا يمكن اختزالها ظاهرا أو باطنا تطل عليها شخوصات ســـعيد الغائمـــة وشديدة الوضوح والشفافيّة في ذات الآن من عل ســـامق... مـــن عل شاهق لا تدرك له نهاية إذ هو لا يعدو في واقع الأمـــر أن يكـــون النقطة التي يوجد فيها المتفرّج. سعيد بارع حد الإعجاز في التحليق بأرضنا البائسة في الأعالي فالنـــزول بها بهدوء لا يفقـــه ســـرّ عـــنفه كي يجعل منها عدنا من الفرحة البدائيّة المغرّدة والارتخـــاء الوديع الذي يصاحبه التشظي والزوابع المزلزلة. إنها لحظة التكسّـــر... إنهـــا لحظـــة التفتّت... هي لحظات العدم والإنفصال المريع... هي لحظات الشتات المسكرة فالعودة إلى الاستقرار الذي لا ينشد من ورائه غير موت رتيب ينفي نشوة الفرحة باختراق المجهول.

الـــرتابة... التعوّد... السأم... وذبح السؤال في فيافي الحنجرة البعـــيدة المقطّعة إربا وغبنا هو الصورة الحقيقيّة للموت يعرّيها سعيد مـــن خلال خطوطه دون أدنى ارتباك أو خجل أو مواراة... بالفشل والعار تصرخ لوحات سعيد... بالنهاية المذلّة تنبئ فتخزى الفضيحة من عريها الشامت بالهوان الذي تلتحفه في الخفاء.

يـــا أيّهـــا الحزن الضاري تنتع أشلاء وقيحا ودما أسمر وأزرق

وأخضـــر... دم الذيـــن يـــأتون من المجالات الموهومة كي يحيوا هنا غـــرباء... غرباء نحن... غرباء كلّنا حد الرهق، قدرنا سؤال ملحاح واحـــد غمـــر كل الأسئلة الأخرى ليجعلنا قاب خطوة أو أدنى من الجـــنون: كيف جئنا لنموت؟ لماذا جئنا ونحن مكتوب علينا أن نترك وراءنـــا الفضاء مترعا برائحتنا وأصواتنا؟ من أجل من جئنا ونحن في لحظة عمياء سنفارق الذين يملؤوننا حد الإحساس بالغربة لثقتنا في أن الإنفصـــال هـــو وحده حقيقة ثابتة لا تقبل لوجودها أن لا يكون. ســـؤال لا يرضى أبدا أن يهي: كيف جئنا من المسافات البعيدة منذ أزمـــنة تتناســـخ دون هـــوادة كي نعيش لحظة موت تقتات بحيرتنا البلـــيدة؟ لمـــاذا تكون حياتنا موتا يمنّينا بفكرة خلود تسلّمنا معانيه المرعبة إلى القرف والغثيان؟

عـــمّ تبحـــث يا نجيب عبد الباري إذا كنت مرتعبا من موتك القادم الذي سيسلّم جسدك المفتول المتلوي برشاقة مغرية على الركح إلى الديدان تلتهمه بعيونها الكبيرة اللزجة وأنت في الآن نفسه تتبجّح بـــأنك تستهزئ بفكرة خلود تقرف من مجرّد ذكره؟ ماذا سيرضيك أيها المشحون كذبا وصلفا وهزيمة نكراء؟ ماذا سيملأ قلبك يا عدوي اللدود الذي حرمني متعة وراحة أن أرى الأشياء ببساطة تهب نفسها للّذين لا تعتريهم حمّى الأسئلة الخراب؟

* * *

فجـــأة تنتـــبه صفوى إلى وجودي غير بعيد عنها. أتشاغل عن غرقي في تفاصيل الجسد الممشوق وأرفع ناظري إلى عينيها المغمورتين تســـاؤلا صـــامتا وحيرة صاخبة. أنسى أو ربما أتعمّد نسيان أنني أنا نجيب عبد الباري بوجهه ولحمه وشحمه والذي لا تخطئه عين فرّاس كعـــين صـــفوى. أتصوّر أنها ترغب في معرفة ما إذا كنت صاحب

المعرض أو هكذا أردت أن يخيّل لي. أرد على تساؤلها الأخرس الذي مـــلأ صداه المكان بسرعة قصوى كأنني بذلك أبغي أن أمحي صورة سعيد التي عن لي أنها احتلّت ذاكرتها: "أنا لست سعيد الزيتوني. هو صديقي وقد تغيّب مضطرّا هذا العشي لأمر أكيد يخصّه... ذهب إلى ســـفارة فرنسا كي يسوي بعض أوراقه الرسميّة وهو لن يرجع إلاّ في وقت متأخّر من هذا المساء". "لم أسألك عن أحد". قذفت في وجهي باقتضـــاب شـــديد. النمرة المتحفّزة كشّرت عن أنيابها منذ البداية. القطّـــة البرية التي يبدو أنها غير قابلة للتدجين أبرزت مخالبها استعدادا للإنقضاض رغم تظاهرها باللامبالاة. خدشتني برودتها المتشنّجة حد الشعور بالخجل من نفسي. تمنّيت صادقا لو أن الأرض تسيخ بي وبها فتضـــمّنا في اللحظة ذاتها. أرتاح... أرتاح عندها وحق الله من هذا العـــذاب الـــذي يطوّقـــني... أرتاح من هذا الصداع الذي يجتاحني ككاسر لا مناص من نخته لدماغي ولضياعي بين براثنه شتاتا.

عـــندما تقاطعت نظراتنا مرّة ثانية كانت هي في الطرف الآخر من الرواق، وكنت مستندا إلى إحدى الأواسي أحتمي بها من السقوط لألم فظيع فتك بساقي لا أدري إن كان مصدره عضويّا أم أن حالة الإحباط المرعـــبة الـــتي تملّكتني هي سببه. كثير من أوجاعنا الجسديّة تنسينا إيّاها أفراحـــنا المختلســـة المؤقّـــتة أو يتظافر عليها إحساساسنا العميق بالبؤس فـــيزيدها قـــدرة على النهش الفاتك المدمّر. ألمح الخيبة تطفئ بريق عيني صـــفوى الشاســـعتين. أشمـــت بها تصوّرته خسارة من جانبها وأنتشي لضعفها، لكنني أخشى أن تذهب قبل أن تشفي غليل فضولي ورغبتي في اخـــتراق مجاهـــلها التي تبدو متأبية. أخشى أن لا يغرقني انتشاء شذى عطـــرها المتضوّع سؤالا... وسؤالا... وشهقة في رحاب النسيان. هل تراني أحببت دون أن أعي صفوى؟؟؟

* * *

إني أنـــا نجيـــب عبد الباري منذ طفولتي عزمت على أن أكون رجـــل النساء جميعا... بل سيّدهنّ. أجتاح عوالمهن الظاهرة والباطنة مهمـــا أرهقني الجهد مستعملا في ذلك كل الأساليب المشروعة منها والغير المشروعة. الغاية عندي تبرّر كل وسيلة ألجأ إليها مهما كانت قذارتهـــا وسفالتها وغايتي المقدّسة التي لا تردعني عنها أية أخلاقيّات هـــي أن أغوي جميع النساء اللاتي يرمي بهن القدر الغاشم في طريقي الشائك واللاتي يرقن لي... كل حسب مقاييس لا يمكن أن أتنبّأ بها مسبقا... أطأهن وأنال منهن وطر آشتهائي القروف أبدا سواء رضين أو أبين... أقذف بعد ذلك في قلوبهن الواجفة دون أدنى شعور بالندم ببرودتي المميتة وأحيطهن علما بأن الفضائح التي قد يفكّرن في إثارتها ستحرقهن وحدهن لأنني تعوّدت على كل تصرّف أرعن قد يتصوّرنه يرهـــبني أو يردعني أو يعيق مسيرتي الناجحة... الزواج مني لا سبيل لهن إليه. أسفك عمري الماضي والقادم ولحظتي الحاضرة التي ليتها لم تكـــن ولا أرتبط بعاهرة تشبه أمي نادية جابر أو بيّة حرم قاسم عبد الباري الذي هو أبي الموقّر.

أنا نجيب عبد الباري سليل اليتم منذ أن عانقت نور هذا الكون الغارق في الظلمة الأبديّة. لا يهمّني كثيرا أو قليلا إن كانت ضحاياي سيمقتنني أو يدعين عليّ بالويل والثبور يوم النشر. ما يهمّ عندي هو أن أدنّس كل أنثى تقع في قبضة شراكي التي أحكم عادة نصبها. أنا نجيـــب عبد الباري لا هذا الجسد الكليل يعارضني ويغلبني ولا الشبق المتعارف عليه يناوئني. فقط أنا أريد أن أسترد ما ضاع منّي... أريد أن أســـترجع ذاك الذي اغتصبته مني نادية جابر في البداية ثم افتكّته دون أدنى شـــعور بالذنـــب حرم أبي المصون عندما بلغت من الغربة والتشرّد عتيّا.

فكّـــوا عسفكم عنّي. لا تبصقوا في وجهي. لا تكشّروا لي عن

أحقـــادكم المـــنفرة التي تمضغكم بوحشيّة وشماتة. لا تمدروا مشاعر كراهـــيّة تملأ عليكم كيانكم الخاوي الذي يقرعه الصدى الموحش. دعـــوا كـــل ذلك ليتفجّر حين الحاجة إليه يا ذوي العيون الزجاجيّة الميـــتة، ولا تقولوا عني إني زنديق متهوّر يتباهى بفجوره ويستعرض فحولته التي لا تخفي عنّته الفاضحة. أنا لن أحزن لسوء حكمكم عليّ ولن تمسّ مني خفقة واحدة آراؤكم المائعة التي تمجّد الكبائر في العتمة وفي أركـــان الخرائـــب المهجـــورة من شهقة الأفراح الصادقة التي خنقـــتموها بأيديكم المشلولة الملوّثة. خرائبكم المنمّقة التي شيدتموها عـــلى أحدث طراز لا يفقه سرّا آهاتكم المكبوتة وأنينكم المكتوم عن العلـــن. أراها مفضوحة وجوهكم المزرقّة السارية فيها دماء فحشكم فـــتحجظ لذلـــك عيونكم وتستولي على أجسادكم الواهنة ارتعاشة الاحتضـــار النبيل يتأبّى عليكم. أتلك هي لحظة الصعود عندكم لا فضح الله حالكم أكثر مما هو عليه. تلك لحظة بئيسة لا تنـــزل بكم إلاّ إلى قعر الهاوية لتتساووا بعدها مع دود الأرض لا يفقه غير النخر لأنه قفر من الإحساس بالحبّ. ذاك بمتانكم على الله وعلى أنفسكم الهامـــات وهذا صدقي الفاجر يصفعكم ويحيلكم إلى رجال من ورق تـــرمي بـــه الرياح العليلة حيثما شاءت. ابحثوا عن ذواتكم المصلوبة بـــأيديكم أمّـــا أنا فإنني لا أنشد غير تحقيق سعادتي القصوى التي لا تتأتّى سوى في لحظات آبقة أفتكها عنوة عن خيبة هذا الزمن المخروم وعـــنكم. تلك اللحظات التي خلالها أسرق منكم نساءكم المتعفّفات فيرحلن معي بإرادتهن على صهوة سحابة من دخان داكن كثيف لا يبشّر بغيث ولا بضباب.

* * *

تســـع ســـنوات مـــرّت على أوّل لقاء لي بك يا امرأة الموانئ

المهجورة... يا امرأة أعشقها من الوريد إلى الوريد... يا امرأة يحدث أحيانا أن أكرهها كما كرهت أمي كيف سلّمتني راضية لقمة هنيئة لليـــتم والفجيعة. تسع سنوات وأنا أعيشك... أنثى تيمّمين بتحد في لحظة معطاء منيرة أحلام العالم كلّها وفي اللحظة ذاتها تنقلبين إلى لبؤة هائجـــة أفلتت من قبضتها المتشنّجة جل الأماني. كيف يمكنك بكل تلـــك البســـاطة أن تـــنقلبي من حالة الامتلاء إلى حالة الخواء المدمّر المرعب. خائف أنا عليك من هول الانفجار يا امرأة الجنون المرّ... يا امرأة تشتعل من رماد الروح وتضيء في تخوم العتمة... يا امرأة تورق مهما كانت الفصول خريفا ممتدّا... يا أمرأة مقدّسة تتطهّر في أدغال الخطيئة والرفض.

* * *

غريب أنا والمسرح وطني بعد أن ضاق بي الوطن. وطني غرناطة وغرناطة هي وطني المسلوب من حقيقته و"لا غالب إلاّ الله" المنقوشة عـــلى الجدران الكامدة وعلى قلب جدي الصارخ رفاته "اذروني ولو غـــبارا هناك عسى أن تستريح روحي الهائمة" ترنّ... ترنّ... وترن العبارة فترتجّ لها الحاضرة والبادية ويمتد صداها إلى الأقاصي. ومفاتيح الحمـــراء قد علاها الصدأ والرؤوس المنكّسة فوق جثث تعتلي جيادا مطهّمـــة كـــان دمهـــا نقيّا قد أفرغت من حكمتها وحنكتها وكل الأشـــياء ضاع منها معناها ففقدت وجهها في غرناطة أخرى هنا أو هـــناك... قريـــبا... أو بعيدا... كم غرناطة راحت... كم قرطبة ضيّعها الانكسار والخديعة... كم طليطلة تبكي في الجليل وفي رام الله وفي الجولان وفي البصرة وفي كربلاء حيث يثوي قرّة عين أهل الجنّة وفي أنحـــاء أخـــرى تتمنّع ذعرا عن منح أسمائها وتتخبّأ وراء حجب الزيف والهوان.

المسافة بين روحي وروحي توغل في الامتداد الموحش وشراسة الجائي تحيلني إلى رماد تذروه الرياح الصابئة وأنا وحدي... أنا وحدي... أنا بمفردي أسير بوعي وبدون وعي في مهبّ الفصول التائه عنها فرحها الحزين في خضمّ الفقد المسهب في الوجيعة. وأنا وحيدا أبحث عنك في الثنايا الموحشة منذ بدء الخليقة... وأنا أحبّك... أحبّك لأنّك وحدك من دونهن أبديّة.

عوجاء دنيانا تتلهّى بحبك المكيدة فيسرق منا وجهنا ويرفرف مزهوّا على قسماتنا المتشنّجة الوجع. كل الأشياء هشّة في هذا العالم الخراب. كل الأشياء سراب نمسك به بعد لأي فيمتلئ داخلنا فراغا كئيبا ونحن ملزمون بأن نخضع بإرادتنا المزعومة لإرهاصات هذا الزمن الوخم. وأنت تنأين... تنأين... وأنا حزين.

يا الله.. يا واهب الحقائق للّذين يتقصّونها من النور إلى النور... يا ربّ الحبّ المطلق لماذا تطبق قلبي دواما على الفقد والخسارة؟

* * *

وأعود... أعود إليها دوما على خوف وعلى حزن شامخ وعلى فرحة هزيلة تسبقها شهقة الموت الدهاق. أسائلها صامتا عن السّر في نفوذي إليها كي تحل بين أحشائي باقة من شعاع لا ينكّل بضوئها المنفلت من رحم العطن الظلام.

يا صفوى... يا هبة المياه البدائية يجيء في أعقاب غفوتك الهادئة الليل متّشحا بالغموض فإن أنت تمطّيت ومددت جذعك الأهيف إلى القبّة الزرقاء المديدة، أفاقت الشموس من غياهب نومتها القصيرة وأطلّت زاهية على العالمين كي تبدّد الوحشة المنتظرة. صفوى، يا بسمة الأسلاف المشروخة أفراحهم العتيقة تناورهم الأيّام العصيبة وتقلب لهم ظهر المجن لكنها لا تصمد كعهدي بها الآن لأنهم لا

يســـلّمون أنفسهم مضغة للهوان... صفوى يا هبة السماوات السبع البعـــيدة وجعـــي مارد جبّار لكن وجعك مختلف. وجعك يخيفني... أســـقط إلى قاع الهاوية السحيقة كلّما تملّيت في عينيك وغصت في الحـــيرة العتـــيدة التي تغمرهما... وجعك يحيلني إلى رماد كائن طهّره البرد والثلج في أزمنة النقاوة القديمة وأنا أرتعب من وجعك وطهارتي والخـــوف المســـتطير يـــأكل روحي على مهل ولكنني بإرادتي أظل أعشقك...

أعـــود إلـــيك تائقا... تائبا... وجلا كلّما عن لي أن أنسى... كـــيف أنسى إذ أنت نقش بهي زخرفته بكل عناية في الذاكرة التعبة لحظـــة تدفّقت خلالها الفتوحات المحرّمة معطاء جليلة. هل أنا الذي صـــنعتك في خـــيالي يـــا صـــفوى أنثى تعفّر وجه الخديعة وتتخبّأ بانتصـــاراتها المبتورة دائما وراء الضباب أم تراني تغاضيت عن كل ما من شأنه أن يشين الصورة التي أعشقها أم أنّك فعلا على علاّتك التي لا تحصـــى كما تصرّحين دون خجل أسطورة بسيطة لا تتكشّف في هذه الأزمنة الخرقاء التي لا ترعوي؟

يـــا صفوى كيف أقول "أحبّك" بطريقة عذراء وليدة لم تتآكل و لم تشـــبها الأدران؟ كـــيف أقول "أنا أنت" والذي يشدّني إليك لا يمكن البوح به يسرا وتحجف في حقّه العبارة أيا كانت صافية. مدي لي روحك السرمد جسرا أمد بين يديك روحي المتناثرة الشظايا ترابا مقدّسا فنعبر الهزيمة على أجنحة لا يهدّها العدم ولا يشنّع بتوقها إلى التحليق صفد.

* * *

أمشي وراءها مثل طفل بائس... أستجدي لفتة اهتمام واحدة

أستطيع بعدها أن أستحوذ على روحها الهائمة المبعثرة لكنها تتمادى بكل تحد في لا مبالاتها المقيتة:

سوف ترين يا ابنة أمّك المدللة... سوف أذيقك علقم الهزيمة النكراء فأنا لا يمكن أن تطيح بسهامي التي لم تخطئ هدفها مرّة أنثى... لم تخلق بعد المرأة التي تقول الـ... لا لنجيب عبد الباري.

ماذا؟ ... أنا ابنة أبي يا ضنى نادية المنسيّ... أنا ابنة أبي لأن جل نساء العالم يقدرن على الخيانة وأمي هي الوحيدة التي لا يمكن البتّة أن تغدر بضحكة أبي المكلومة.

أقهقه مواربا غبني وخزيي وانكساري الفادح أمام نفسي. أحاول أن أسد أذني قدر جهدي حتى لا أختبل لكن صوتها الباطن لا ينفكّ يصلني مقرقعا... مرعدا... شامتا... مستهزئا:

أكره فيك غرورك الأجوف يا نجيب عبد الباري الذي يكاد يصرخ فينا تعاليا وعتوّا كلّما أطلّت علينا صورته البهيّة تملأ الشاشة فتنطفئ الوجوه أمامها وتنكسر الحركات الباهتة وتخبو. تصبح أنت هدف العين المبهورة التي لا تبغي أن ترى غيرك. يتهافت عليك المخرجون المشهورون والمنتجون المتاجرون بأدمغتنا الغافية وأحلامنا الهاربة كما يسعى إليك الأجانب كي تظلل على فراغهم البارد الجليد. اضحك على ذقون الجميع يا سيّد الزيف ما دامت الحياة قد دللتك فمنحتك كل ما يبدو فاتنا في الرجل. ليست غريبة عني ضحكتك تلك الجانبية المتجهّمة التي لا تتحرّك لها سوى شفتك السفلى... أعرفها ضحكتك المدقعة التي توتّر أعصابي يا نبي زمانك الفارغ مثل أحلامهم... ما كل هذا الدمار المشتعل حذوي؟ ما كل هذه الحرائق المتوهّجة الفاغرة عيونها الهشيم المتّقدة شرّها...؟ أخبارك تفضحها صحف هذه البلاد اليوميّة التي لا تتقن غير التقصّي المحموم

في أشيائكم الحميمة.

عــرّ نفسك يا نجيب... عرّ عارك... لا تتوان حتى تخجل من عريك الفضيحة... تابع ذبحك لروحك المنتهكة ودع صفوى تقرع داخلك فهي لا يمكن أن يخفى عنها جلي أمرك... واصل يا نجيب... وأنت واصلي أيضا يا صفوى...

أتصــوّر أنّــك بــارع في اختلاق أحداث عمياء لا تجرؤ أن تخطر على بال أوسعه الزيف مرارا. أنت تثير شفقتي لأنّك لا تحيا إلاّ مــن خــلال ذاكرة الآخرين الــ... مسطّحة... الــ... ــغبيّة... الــ... ــعمياء.

يصــرخ في صوتي متمرّدا... ويصرخ في صمت صفوى البارد كالثــلج عالــيا... مــرتفعا... ضاجّا حتى أنه لم يعد لي قدرة على الاحتمال. أكّدت لي نظرتها أن صفوى تعرف أنني أنا الواقف أمامها نجيــب عــبد الــباري المهــزوم لذلك كانت لامبالاتها أكثر إدماء لكبريائي.

مــاذا أرى بأمّ عيني في هذه اللحظة البارقة؟ ماذا يجري؟ أهاتان القدمــان اللتان تحملاني عنتا هما قدماي أنا أم أن هذا الجسد الكليل الــذي يواجــه الآن صفوى ليس جسدي؟ أمازال هذا الوجه الذي رأيــت صفوى تمتعض منه منذ وقت قصير هو وجهي أم أن الواقف في الــرواق الآن هــو رجــل آخر غريب عني مهما كانت خلجاته تقرعني.

* * *

هكــذا وكمــا يجري في أحايين قد لا تكون كثيرة... وهكذا وكما يحدث دائما في حياتنا الغريبة وفي غفلة من وعينا التائه يباغتنا

القـــدر الرهيب بكل ما نتصوّر أنه لا يمكن أن يكون... تتقدّم نحوي صفوى بخطى ثابتة وبوجه شبه ضاحك هذه المرّة... الآن وبعد عناء بدا لي أنه امتد دهورا صفوى ستصير لي أنا أيضا... صفوى ستكون لنجيب عبد الباري الذي يسير في ركبه الموت ألوانا.

أجـــتهد كـــي لا تبدو عليّ علامات الفرح بمحاولاتها التقرّب منّي. أتصنّع الحنق وأتظاهر بعدم الاهتمام بمبادرتها فتسارعني بالكلام. هـــذه المرّة تكلّمت صفوى... تكلّمت... وتكلّمت ووجدتني رغما عن رغبتي في الانتقام كلي آذان صاغية:

أ... و... و... ف منك أستاذ نجيب... أهي حروب ضروس لا يتمّ هناؤك إلاّ بعد أن تشعلها؟ فلتكن حربك أنت فقط إذن أمّا أنا فقـــد سئمت منازلة الريح العاتية لأنني أعييت... منهكة أنا والرمال الزجاج تملأ أحشائي... وأنا أتمزّق... وأنا أنـــزف... وأنا لن أدعني لغير فائدة ترجى أضيف إلى دماراتي دمارا آخر بالاقتراب من عالمك المغري.

تنـــتظر الوافـــدة مـــن الفجـــر العتيق ردّة فعلي لكن تلقائيّتها تخرسني... تلجمني صراحتها المتمرّدة ويجمّد صدقها الكلمات المبعثرة في حلقـــي. صـــوت المســـجّل يعلو صادحا فيخرس كل الأصوات الأخرى والهمسات التي تملأ الرواق:

"كلّما اشتعلت... اشتعلت في مهجتي

خلتها أملا

فإذا بها نار الخوف... نار الخوف... تلتهم الحنين"

تواصل المملوءة ظلاما دامسا فضوءا غامرا الكلام المباح عندما تيأس من ردّي:

أنا لست غبيّة كي لا أبالي بالتعرّف إليك عن قرب... فقط أنا

أشـــفق عليك من احتراقي الموجع... أنا لا أكرهك كما صوّر لك غرورك الصلف. أي أنثى تقدر على كراهيّة نجيب عبد الباري؟ لماذا تـــتخلّى عـــن فراســـتك وتتصوّر أنّك بكل بساطة قد اهتزّ عرشك وانـــتهى أمر سحرك يا صاحب العرش؟ لماذا لا تفهم أنني قد أكون أحـــبّك أكثر منهن جميعا لأنني أفهمك وأحسّ بالقهر الذي يغمرك عندما أكون بصدد متابعة كل كلمة تبوح بها في أدوارك التي أغبطك عليها. "إهترأت الاشتراكية... إلتهمتنا الرأسمالية بأنياب قاطعة تنشر لحومـــنا دون رأفـــة... ضاعت مبادئ ناصعة أو كالحة كانت تملؤنا وتاهـــت إنســـانيّتنا في خضـــمّ عهر لا قدرة لنا على مجابهته... كل الـــنظريّات كانـــت مفروضـــة عليـــنا... عليّ... لم تكن نابعة من داخـــلي... لم يكن وعيي العميق هو الذي يرعاها لأنها لم تنبثق من رحمـــه. كانت عوالم تتناحر بواسطتي... كتلا تكسّر كتلا تتقاذف كرة الجليد فتشرخ وتنـــزف لاإنسانيّة وحقدا وبغضا وكانت الكرة تتناثر... هباء... وكنت أنا أحسّني لا أعدو أن أكون لعبة مقيتة يلهو بها الكبار دون أدنى شعور بالحياء والندم وكنت أنا أهوي إلى القاع في كل مرّة مغمض العينين غارقا في الغيبوبة العاتمة...

مـــاذا بقـــي لنا الآن. لا شيء... لا شيء... لا شيء غير موتنا نعيشـــه لحظـــة... فلحظة... فلحظة مرة... علقما وكأننا لن نكون... وكأنـــنا حفـــنة من غبار هباءاتها ثقيلة... ثقيلة... خانقة... تنفي خفّة الكـــائن المعـــدوم الـــذي يملؤنـــا حـــد الخواء والخراب. الأديان... الإيديولوجـــيات... المـــبادئ الـــتي لم ترتق أبدا بغير الذين أسّسوا لها أرضـــيات تلائـــم نهمهم المتوحّش ورغبتهم المكبوتة في أن يكونوا آلهة العـــالم العـــائدة من سحيق الأسطورة البعيدة... هم خلقوها فقط كي يحقّقـــوا آمالهم الخافقة في أن يكونوا متحكّمين بمصائر الشعوب البسيطة فتولد في البداية عبودية بوجه متخفّ لكن أشياءهم التي حلّقت بهم عاليا

لا تلبث أن تموت بموتهم. كل الصادقين يموتون باكرا إما قهرا لأنهم يؤمنون متأخّرين بعد أن خاضوا أشواطا نائية في رؤاهم باستحالة تحقيق آمالهم المفعمة براءة ونيّة طيّبة أو اغتيالا من طرف الذين يتأكّدون من جدية مشروعهم الذي يهدّد بقلب الموازين المتعارف عليها".

أحببت كلامك وها أنا أحفظه أمامك عن ظهر قلب... مسرحيّتك "هذا العالم الخراب" تحكيني وتعري ضعفك الفادح. أجمل لحظات حياتنا هي تلك التي تضعنا في مواجهة دامية مع ضعفنا لأنه هو الوحيد الذي يزيح الحجب عن إنسانيّتنا وهو الوحيد الذي يفضح خزي حقيقة لا مناص لنا منها. لماذا لا تفهم بعد الذي قلت إنني أشبهك في كثير من الأشياء فقط ممارساتنا وردود فعلنا حيال الذي يجري هي المختلفة... والله أنا لا أكرهك يا نجيب... هل أرتمي في أحضانك كي أثبت لك أنني لا أمقتك؟ هل تريد أن أقبّل خصلات شعرك الليل الجامحة دائما وذؤابات أظافرك الرقيقة الشاحبة؟ أستطيع أن أفعل وعلى الملإ أيضا لكن عدني أن لا يرعبك موتي... عدني أن لا يقزّزك احتضانك للعدم... كلانا وهب للموت يا نجيب... أنت هربت من موتك إلى لذّة تملأ عليك عالمك الحافل بالكرّ فالجمود والفرّ وأنا هربت من موتي الزؤام إلى نار الشهقات الخرساء الصاخبة المترعة خيبة وضلالا... واشتهاء...

أريدك أن تكوني أنثاي.

كي أصير رقما أخرس موحشا في حياتك؟ كل الإناث واحدة جسدا أمّا أنا فمتعدّدة في صيغة المفرد وهذه الجثة الجليد الماثلة أمامك الساعة لا تعنيني كثيرا لأنني أشبه بها الأخريات... أنا لا يهمّني أن يراني الرجل أنثى... أنا فقط أهتمّ بأن يحسّ بي الآخر كائنا تختلج بداخلي ألوان شتّى من الأحاسيس تؤكّد أنني

أحيا وأنني أرفض وأنني أعيش موتي الواعي الطوفان وأنني بصدق أ... ح... بّ.

ألم تقـــولي إنّك لن تعبئي باستنكار الآخرين إذا ما أتيت أمرا لا يروق لهم. إذن:

قبليني

كي أحسّ أنني أنت

إن هٰذا الصباح زاهيا لن يأتي

سمعت لما كنت طفلا

جدّتي على هوادة تحكيها وعمّتي التي التهمها التراب صبيّة يافعة ملء فرحتها تغنّيها

وبكماء حارتنا البعيدة

تصوّرها

في المآقي المشتعلة عتبا وحزنا

زهرة لا تذبل

قبّليني كي أعود طفلا

كي أحسّ أنني أنت

وأنّنا واحد

سلّمتنا الغربة

للحزن المهجّن

للأروقة الممتدّة ظلاما... وظلاما... وظلاما معتّقا

قبّليني قبّليني كي أحسّ أنّك باعثتي

من فراغ الخراب

من بطون العتمة...

فقـــط لكي أثبت لك أنني لا أهتمّ بهم وأنّك تستحق حبّ كل الناس لا لشيء آخر صدّقني أستاذ نجيب.

وتقـــبّلني صـــفوى الحامد على خدي الأيمن قبلة ما زلت أظنها ستستمرّ إلى يوم أن أبعث حيّا. وكان ذلك كافيا لكي أعشق صفوى ولا أتـــنازل مهما كان الأمر عن شعوري بحبها الذي يملؤني من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ. كيف أحبّ صفوى الحامد؟ كرجل؟ ... كـــأب؟ ... كطفل يبرّح به الحنين إلى ثدي أمّ يمتصّ خوفه ويغسل خزيه؟ ... لا يهمّ كيف أحببت صفوى. المهمّ هو أنني أحيا اللحظة على شذى حبها وشدوه.

* * *

إنني أنا نجيب عبد الباري الذي أحبّ صفوى ملء روحه لكنني لم أستطع أن لا أكون غير تلميذ أبيقور الوفيّ. ظللت لا أعترف بغير اللـــذة هدفـــا ساميا في حياتي. اللذة والاشتهاء هما أساس وجودي الأمـــثل رغـــم اقتـــناعي من أنهما لا يعدوان أن يكونا هدرا للوقت وللأحاســـيس الصـــادقة. بواسطتهما فقط يغادرني وجعي وخوفي. مرتعـــب أنا... أجل أنا أيضا مرتعب حد الهوس يا صفوى. أنا أيضا مرتعـــب حـــد الشـــعور بالمهانة يا صفوى. أنا أيضا مسكون بالألم المتوحّش الفادح لذلك ترينني أهرب من خوفي الناهش إلى نـــزواتي اليائســـة. بداخـــلي تســـتعر رغبة مدمية في أن أحكي ... لا بد أن أحكـــي كـــي أزيـــل عني كل هذه الأدران التي تسرّبت في أعماقي الســـحيقة إلى أن صـــارت جزءا لا يمكن أن ينفصل عنّي. لا بد أن

أتطهّـــر من حزني الذي تحوّل مع مرّ الأيّام إلى لامبالاة مفجعة وحقد أســـود لا يكـــل من قضم أفراحي الباهتة. هل كنت تتصوّرين أنني ســـعيد بحـــياتي... قـــانع بنسقها؟ أنا أيضا منتهك من الحقوق. أنا مســـلوب حد الفراغ لذلك فإنني لا أعتبر نفسي تافها إذا ما أنفقت عمـــري لاهثا وراء شهواتي المقرفة العابرة التي تأتيني بهرة من ضوء لا يلبث أن يتحوّل إلى رماد باهت... صدّقي يا صفوى أن نـــزقي هو الـــذي يحقّق لي الأمان إذا ما خضته مواجها العدم المنتشر وهو الذي يصـــيح بي كلّمـــا ران الموت حولي بكل رعونة: "ها أنت ذا هنا ما زلـــت تشـــهق وتزفر... ها أنت ذا هنا ما زلت تفنّد موتك الذي يلاحقك كظلّك". أم أنك ترينني ميّتا الموتة التي ما بعدها بعث؟

* * *

آ... ي لم أكـــبر بعد يا جدّة رغم تتالي السنين الطويلة... ما زلت ذاك اليتيم المتشنّج الشاد بأطراف ثوبك... المنكمش وراءك... الهارب إليك كلّما داهمني الصقيع... ما زلت ذاك الطفل الذي رمت بـــه نهارات طفولته الكئيبة في دروب الضياع المقفرة... ذاك المتشرّد على أرصفة عهر نادية جابر نجمة ليالي فنادق الخمس نجوم في قاهرة المعـــزّ أيـــام الاعـــتداء الثلاثي والنكبات الراقصة التي عصفت بفلذة اخناتون وعمرو بن العاص وعرابي الوافد من عميق الطمي... وذاك الـــتائه البليد المتلبّد في أروقة قهر أبي المساوئ ابنك الذي طالما حث العـــنقاء عـــلى التحليق بي بعيدا... بعيدا عن عالمه وعالم بيّة وأبنائه الجـــدد وكأنني لم أكن في يوم ما بئيس نطفته المنبوذة. لا شكّ أنني حللـــت بهذه الدنيا في أحد أيام النسيء جدّتي، لذلك أحسّ أن لعنة الإقصـــاء لا تفتأ تنهشني رغم أن الله الذي لا يراني هو الذي زركش الصدفة متلألئة كي ترتعش كل نأمة في قاسم عبد الباري عندما رأى

ناديـــة جابر لأوّل مرّة ذات ليلة نحسة ناءت بوجيع حزني الآتي على مضـــض وهـــا قـــد جئت ثمرة خطيئة لم تقترفها يداي... أنا لقيط جـــدّتي.. أنـــا ابن الصدفة الماكرة تنسج أحداثها الداعرة كي تغتال الأمـــان ويحـــل الرعب المتغطرس يرتع جنينا قميئا منكورا في الروح الـــتائهة... أنـــا نقمة الشهوة العابرة جدّتي لن يفكّني من براثنها غير المـــوت... أنا لعنة حرام سافل لا تهادن تتقافز في خلايايا كي تجعل مني كائنا قاحلا من الفرح.

آ... ي جدّتي... كم هو مرّ إحساسي بالعوز والنقص والنقمة والرغـــبة المتوحشة في الإنتقام... كم هو حنظل إحساسي بالفقد... فقـــد كل الأشياء التي من شأنها أن تجعلني أشعر بالامتلاء الحقيقيّ... لم يقدر أي كان على تخفيف شراسة المسافات التي تفصلني عن نفس مكابدة أتوق إلى احتضانها دون أن تلفظني غيرك في البداية ثم المسرح إلى أن جاءت صفوى... تخفّفت من عبئي الثقيل إلاّ أنني ظللت أشبه ماضي أكثر مما أشبه حاضري... ظللت أحمل جراحي سحابة ماحلة في داخـــلي و لم أنتظر مرّة واحدة أن تنهمر لآلئ عارمة تطفئ جذوة الظمإ الفاسق المختبل الذي تراكم وترسّب بأعماقي وها قد تيبّست لشـــدّة جفافي... عند بلوغ فيض الجرح والحزن تصير ماردة قسوتنا فتتمرّد طيبتنا وتتجمّد دموعنا العصيّة... تضحي حجارة صوّان ترجم الذيـــن يشبهون كوائن أوغلوا في إيذائنا وتمتّعوا بأن يصلبوا فرحة لا نعـــرف طعمها الحقيقي الذي يتحدث عنه الكثيرون من الذين نحبّ فـــنعطف عليهم لشدّة لهوهم عن الوجه الآخر الماكر للدّنيا ونشفق على ضحكاتهم العذراء المتناثرة من غدر الفقدان حد البكاء الأسود.

متعـــب جـــدّتي... مقـــرور حفيدك الصبي والمسافات الطويلة المســـعورة تصـــهل كامل الوقت تدعوه إلى الفتك بالوجوه الهاربة المشـــوّهة تقاســـيمها إذا مـــا أزيحـــت عنها الحجب تعده بالغريب

المرعب... موجوع جدّتي والهزيمة خريطة موشومة لا متناهية الأبعاد أهـيم في تضاريسـها المخفـورة بأظافري المدميّة إلى أقاصي الوهن والاسـتلاب... مغـدور بي جدّتي وأنا أكثر الغادرين بي توحّشا لا أرأف بحـالي ولا تتملّكني بضعفي شفقة... لا يعوزني غير أن أسمل عيني كي تتلاءم العتمة الدامسة المستفحلة بداخلي مع هذه الظلمات الفاتكة المتسترّة بالرياء... تائه جدّتي النائية يقذف بي الضياع الفاجر ويـرمي بي الموج إلى الموج العاتي فأكسّر زبدا على صخور متوحّشة في موانـئ موحشـة لا يـأنس إلـيها بحّارة ولا تلفت انتباه غوان يستسـلمن قانعـات جثثا من نار متوهّجة للّذين فقهوا سرّ الأزرق المديد مثلي، فكان أن تساوت حياتهم بالغياب يشرخ الذاكرة ويغني للـترحال المتواصـل المبشّـر صمتا بالرجوع دائما إلى محور العدم المتماهـية في حـيزه الجـلي الغامض الرؤى المتنافرة... المتناحرة... المـتعانقة... مذبوح جدّتي تتسلّى الكوابيس بمشاهدتي ضئيلا أبكي مـثل الثكالى... ما أكثر الليالي التي أجدني فيها مبتور الأطراف... يـداي ورجـلاي أشـلاء، بأمّ عيني الصاحية أرى الكلاب السائبة تنهشها وقد لطّخت أسنانها المذبّبة دمائي الساخنة وأجدني عاجزا عن الحركة أو الصياح رغم لوعتي... سوف تفرغ من ذلك الذي انفصل عـني في لحظـة عجـز فادح يلبسني كي تنكفئ على عيني وكبدي فدماغي حين جوعها المقبل وأنا لا إرادة لي تحميني من زوالي الذي لا أرى غيره نهاية ترتقبني.

لا أدري جـدّتي إن كان صحيحا ما يتبادر إلى ذهني دائما أن ابنك هو السبب فيما أعيشه من ضياع، أم أن قدري هو الذي اختار لي أن أكـون نجيـب عبد الباري المنذور للخيبة والدمار. هو قد لا يكون السبب الوحيد في بليّتي لكنه لا يمكن أبدا أن يتنصل أمام ربّ العـالمين مـن حقـيقة أنه أصل هذا الداء العضال الذي ينخرني. لا

تختلقي له الأعذار حتى وإن كان ضناك جدّتي فأنت كنت شاهدة.

تذكّـــري مـــا حدث يوم نجاحي في امتحان الباكلوريا. كل أصـــدقائي كانوا يبكون فرحا في أحضان آبائهم الفخورين أمّا أنا فقد قابلني أبي رغم تفوّقي بضحكة باردة... فارغة... أنا أذكرها جيّدا ضحكته الساخرة المردودة على سعادته الزائفة... ما أثقل ما ورثـــت عنه... ضحكة ممتلئة حقدا وضغينة، معبّأة اشتهاء مقرفا وازدراء، هكـــذا وصفت صفوى ضحكتي التي يرى فيها الأهلون بطمّهـــم وطمبمهم ضحكة عالي الشأن الذي أضحى يبابا منسيّا هـــذه الأيّام. حتّى بيّة صارت تطري على ضحكتي وعلى قسماتي وحـــركاتي بعـــد أن صرت نجيب عبد الباري الممثل المشهور... ســـحقا لـــنجاح يجعـــل الذين تفضّل العمى على أن تراهم مثل صراصير يتشبّثون بأطرافك دون أن تكون لك القدرة الكافية على أن تسحقهم بكعب حذائك بغير رأفة... نسيت اليوم بيّة كيدها لي وشماتتها بي. تناست سخريتها مني خاصّة عندما صفعني زوجها أياما معدودة بعد نجاحي لأنني طلبت منه مواصلة تعلّمي في إحدى مدارس الفنون الجميلة بباريس. قال لي يومها وفي أيام كثيرة تلت وكلّمـــا سنحت له فرصة يجب أن يخلقها إن عائلة عبد الباري لا يمكن أبدا أن تنجب فنّانا متشرّدا في دروب الحي اللاتيني الذي لا يقصده غير الفاشلين والخائبين، وعيّرني بأنها دماء التي اختار رحمها المظلم وعاء يحملني لعنة تسري في شراييني... ها... ها جدّتي أما عائلة عبد الباري فلا يسري في عروقها غير الدماء المقدّسة النقيّة وأنا على ذلك شهيد جدّتي. لا تغضبي مني فأنا أريد أن أتخفّف من عبئي الذي أثقل كاهلي بالتذكّر.

كنت ما زلت طفلاً عندما عاقبتني بيّة في غيابك عن المنـــزل بـــتجويعي يوما كاملا لأنني شتمت عبد الكريم المرابط ابن صديق

أبي لأنه قرص وجنتي في آخر زيارة له لبيّة بكل وقاحة. لم ترني بيّة عـــندما كنـــت أتلصّـــص عليهما من خصاص النافذة في الحديقة الخلفيّة لمنـــزلنا بعد أن شككت في أمر الزيارات المريبة لصديقها. كانـــت بيّة ترتعش بين يدي ذلك الأصهب الفارع الغبي وكنت حزيـــنا على حبّ وولاء قاسم عبد الباري رغم أنه يستحق مثل تلك الخيانة التي أجهدت نفسي كي أنساها لثقتي بأن ابنك الموقّر سيعتبرها وشاية ولن يصدّقني لكنها...

كانت تتلوّى جدّتي

وكان أبي يجري

يلاحق نجمة

يطارد مهرة

يناشد زهرة

يكابد لعنة

يهادن كذبة

كانت تتلوّى جدّتي

وظل أبي يجري

تسّاقط النجمة

تحترق المهرة

تنفطر الزهرة

تتكاثف اللعنة

تكشّر الكذبة

كان أبي يشهق جدّتي

لم أعـــرف غير متأخّر أن بيّة كانت تربطها علاقة حبّ لا أعلم إن كانـــت قبيحة أو جميلة مع عبد الكريم قبل زفافهما إلى أبي. و لم أســـتطع أن أقـــنع نفسي أنها هي الأخرى قد تكون قربانا آخر قدّم للأنفـــس الجشعة فلم أغفر لها شناعة صنيعها. أمّا هي فقد ستر الحظّ فضـــيحتها وواصـــلت العيش في أمان من العار. ألجم الخوف لساني وأخمـــد جهلي لعاقبة ما سيؤول إليه أمري إن أنا كشفت ما اطّلعت علـــيه توقي إلى أن أرى بيّة ذليلة. ظلّت بية لا تتوانى عن امتهاني ولا تفوّت فرصة دون أن تزيد من إضرام النار تأكل أيامي بنهم متوحّش، و لم أقـــف مكتوف اليدين إذ أنني كنت أحيانا أجعل من انتقامي سمّا ينهش أعصابها الفالتة.

كنـــت ما زلت طفلاً لم أتحصّل بعد على الشهادة الإبتدائيّة... وكنـــت أسمـــع وأنا قابع في غرفة جدّتي سعال بيّة الجافّ المتواصل. كانت حشرجتها تخدش مسامعي لكنها تزيد فرحتي بضعفها هي التي لا تعرف غير أن تكون متعجرفة عند مواجهة جميع من في الدار. بيّة هيدرا ما إن تقطع لها رأسا حتى تنمو مكانه بسرعة هائلة رؤوس عدّة لا تحصى... سلاح بيّة ذو الألف نصل هو جمال يسبي الروح والعقل لا يقابله أبي بغير الخنوع والهوان مما يبعث في دائما الرغبة في الغثيان. إني أرى أبي أبدا ومع الجميع نمرودا ولكنه في رحاب بيّة يضحي ميعة مائقـــا يستدعي حاله المذل الشفقة. كان يومها على سفر لذلك لم يـــدع لبيّة الملازمة الفراش الطبيب. عمدت إلى شجرة اترجّ قد آتت وكـــثر حملها وقطفت بعضا من ثمارها الناضجة منذ فترة غير قصيرة. حملت العصير الحامض... الحامض... المرّ كقدري المظلم إلى بيّة... لم تشكرني... فقط ابتسمت... ما كانت ضحكة حبّ... ما كانت ضحكة امتنان... فقط كانت ضحكة انتصار... ورفعت بيّة الكأس

إلى فمهـــا... الجـــرعة كانت كبيرة والشهقة كانت أكبر... رأيت دموعها تجري مدرارا من شدّة الألم. تقيّأت... احمرّ وجهها وكنت أضحك.

تحديـــت بيّة تلك المرّة ومرّات أخرى عديدة قبلها ولكنني بعد هـــذه الفعلة سأخضع لبيّة وسأصبح طوع أوامرها مهما كانت عتيّة ومهمـــا كـــان عجزي فادحا. في لحظة ضعف لا يوصف خفت... ارتعبت وندمت على أنني اقترفت تلك الفرحة القصيرة إذ لم تلبث أن اســـتعادت بـــيّة وعيها وكما جرت العادة تحوّل منـــزلنا إلى ساحة وغى أضحيت فيها الارهابي. وقفت بيّة. غدت مثل ثور هائج لكنني لم أصـــر بعد التوريدو وكي أغرس في أحشائها جميع ما صنع بمهارة الســـيافون. لم أنتـــبه إلاّ وبـــيّة تركلني ملء حقدها. بيّة تصفعني... وتصفعني... وتصفعني وكأنني لم أكن من لحم ودم... كانت تنشب الأظافـــر الطويلة في وجهي الشاحب دائما كما تقول جدّتي وكانت تعضّـــني وتجرّني من رأسي وكنت أضحك... أضحك... أقهقه كي أتغلّب على دموعي وقهري. كلّما تمادت بيّة في ضربي كنت أشحن إصرارا على عدم إسعادها برؤية دموعي تطفر من عيني إلى أن كلّت يداها وتركتني متكوّما على آلامي المبرّحة في فناء المنـــزل. لم أشأ أن أصـــيح حـــتى لا يأتي الجيران. تركت بيّة تضربني حتى يزداد حقدي ضـــراوة. تركتها تغتال بقلبي كل شيء جميل وكانت الحيطان كلّها عـــيون واســـعة تـــنظر بغـــير انحياز إلى ما يجري. آ... ه يا طفولتي التعيســـة... يسألونني دائما وخاصّة صفوى لم كل هذا الحقد وأبغي أن أشرح موقفي إلاّ أن بيّة وزوجها أبي المساوئ علّماني أن لا أشرق بغير صمتي العاجز... المتحدي.

زحفت إلى غرفة المعيشة وانـــزويت وراء جرّة الزيّت وجعلت أنشـــج... أنشج... إلى أن غلبني النعاس وأخذتني في حضنها الحاني

أحـــلام وعدتـــني بغد أجمل قد ينسيني هول عذاب اللحظة الرهيبة الدامـــية. كان الليل قد أسدل ستاره عندما أفقت على ولولة جدّتي الـــتي لم تعـــثر لي على أثر. كانت جدّتي تقسم للجيران الذين نفروا إليها أن ما أخبرتها به بيّة بمتان وأن نيّتي كانت طيّبة عندما قدمت لها العصـــير. خرجت من غرفة المعيشة وكأنني انتهيت لتوي من معركة خضـــتها مـــع وحش ضار... كانت عيناي مزرقّتين وكان وجهي الضـــامر ســـابقا منـــتفخا من أثر اللكمات العنيفة التي تلقّيتها منذ ساعات وكان نحيب جدّتي يثير الشفقة ويبكي العيون المالحة.

الحقـــد أتون يؤجّ في قلبي يا جدّة... الحقد نار تأكلني وتنهش صـــور كل المحبطين بي دون رأفة. الحقد يطفئ ضوء كل ضحكات الذين يحبونني وأنا وحيد.

* * *

في مـــنـــزل العائلة، على سفح جبل منعزل كنت أقضي أسعد أوقـــاتي. مـــا إن تنتهي السنة الدراسية حتى تأخذني جدّتي إلى هناك مـــتعللة برغبـــتها في تفقّد بيتها وزيارة ذويها الذين لا تنفكّ تشكو اشتياقها إليهم إلاّ أنه لا يخفى عني أنها لا تبتغي من وراء تركها المدينة ســـوى إنقـــاذي مـــن جوّ مشحون بالتوتّر والكراهيّة يصطخب به المنـــزل. اصطحبت مرّة صفوى إلى منـــزل جدّتي فانبهرت بالجمال البدائي للمكان والذي لا يتجلّى لغير من يختبل بداخلهم الحبّ البكر والـــرؤى المســـتحيلة. أيامها عرفت في صفوى شاعرة بسيطة لكن بداخلها تصهل نبضات هذا الكون البعيد الذي صرنا لا نرى فيه غير مـــا تطـــؤه أقدامنا وتلمسه أيدينا لتسرق وتغتصب وتدوس نور الله الـــباهر فيه. قرأت خلسة على إحدى جذاذات صفوى ما خربشته ذات ليلة ليلاء ماطرة:

أيّها الجبل المقفر إلاّ من صدى وقع خطواتهنّ

كيف صدّقت جنّياتك وعدك

بأنّك ستتحرّك في غفلة عن القدر

وتأتي لهن بفرسان من السماء الشاهقة

يعزفون لحن الأفراح المصلوبة

على سنا البرق

ويحملون بين أجنحتهم

ندف الثلج الناصعة

كالكذب

كالحقيقة

يجلبون حبّات المطر المتناثرة

لآلئ يرصّعون بها أجياد صبايا

يطفحن شوقا صافيا للّذين لن يقدموا

كيف غاب عن سنونوّاتك النور

اللاتي لم يطمثهن فجرا إنس ولا جان

أنّك الليلة أيضا

ستخلف عهدك المبتور

فينمن على فراش من جمر ووحدة

معاقرات صمت العزلة الفاتكة

معانقات صقيع الوحدة الرامضة

* * *

ربّمـــا لأن صفوى عرفتني أكثر مما عرفت نفسي اكتشفت في تلـــك الفترة معاني أخرى خفيت عني طويلا. لا أحد فسح لي المجال كـــي أغوص في أعماقي وأرى ذلك الجانب المضيء فيّ مثلما فعلت صـــفوى. كنـــت قبلها مملوءا خرابا وخرابا وظلاما دامسا متوحّشا يقـــتات بأفـــراح الآخرين فيحوّلها إلى أحزان لا تنتهي لكنني بعد أن تعرّفـــت على صفوى صرت أقل عدوانيّة... لم أتخل عن كل عاداتي المزرية إلاّ أنني تغيّرت نحو الأفضل قليلا إذ بعد أن كنت استمد قوّتي مـــن الكراهـــية وبعد أن كان الحقد والنقمة هما الحافزان الوحيدان اللـــذان يجعلاني أداوم صرت أبحث عن الحبّ. ترى هل يمكن لذي العفـــو العميم أن يغفر لي يوما ما اقترف قلبي الذي لم يعرف الرحمة بعدمـــا وهبني القدرة الكافية لمواجهة من أساؤوا إلي وحتى الذين لم يـــلحقني مـــنهم أي أذى يمكن أن يجعلني وحشا كاسرا لا يركن إلى رأفة تعمّر قلب غيري من البشر؟ أنا أتوق دائما إلى أن أكون إنسانا يحـــسّ لكـــن أحاسيســـي الممعنة غالبا في الهروب كانت تخذلني... أحاسيســـي لم تعد باردة إلى درجة الموت لكنها ظلّت مرتبكة بالقدر الذي يجعلني لا أثق بثبات حسن نيّتها.

* * *

خـــلال الأيّام التي أمضتها معنا صفوى في قريتي الجميلة البعيدة عن العاصمة الصاخبة نهارا والمفجع سكونها ليلا استعدت جزءا نقيّا من طفولتي أصرت بية على أن تفقدني إياه... استرجعت أياما دأبت جـــدّتي على أن تسرقها لي بين قهر لا يرعوي وقهر لا ينتهي وعدني بهما زمن آل على نفسه أن يغتصب مني كل فرحة يطولها قلبي، لكنه أحيانا كان يندحر أمام عزيمة جدّتي وسعيها الدائب إلى إسعادي قدر اســـتطاعتها. الحبّ يقدر أحيانا على أن يهزم القدر أيا كان الإضمار

الذي ينطوي عليه... يكفي أن تحبّ كي يعطف عليك الزمن ويمنح الفـــرحة للّذين تحبّهم لكن أين الحبّ في عالمي؟ من أين أجيء به وأنا تعوّدت على أن أكون صنو الفراغ؟

في ذاك الـــزمن الموغل في بعده كنت أصير أنا وأنسى همي رغم إيماني الذي كان يعول بداخلي لينبّهني إلى أنني مرّة أخرى وبعد زمن سيقصـــر مهمـــا كان طويلا سأعود إلى رحاب بيّة المسموم هواؤه والذي كتب عليّ تنشّقه.

لا أجيج قيلولة رامضة كان حينها يمنعني من الخروج إذا عن لي ذلـــك. لا أديم ليل جاثم مثل كاسر على الفضاء ولا تحذير جدّتي من إمكانـــيّة مصادفتي لخنـــزير بري شرس قد يفتك بي ويمزّق أحشائي يمكـــن أن يثنـــياني أيضا عن الالتقاء بصديقي الجبل أو الذهاب إلى العـــين، لذلك سمّاني أهل القرية الذئب الأليف. أعرف كل المسالك المؤديـــة إلى أمـــاكني المفضلة ولا أختار غير الطويلة المتشعّبة المختفية وراء الأشـــجار المتشابكة التي لم تطأها غير أقدام العاشقين القدامى يهـــربون بمشاعر مصطفاة جليلة باركها الله بعيدا عن أعين وشاة لا يعـــرفون لون الدفء الذي يهبه حبّ تجلّله السماء وترقص في إثره الملائكة وتغنّي.

كنـــت أقطـــع تلك المسالك المقفرة دائما شاديا مترنّما أملأ جـــيوبي بالزعـــرور البري الشهي طعمه تارة وأرفع الحجارة عن الصيصـــان الكثيرة التي تصرّ ملء وحدتها أخرى... أركض وراء أرنب بري لا أدري من أين ينبثق فجأة أمامي مثل شعاع أو أرمي ضفدعا في الجدول المنساب لا ينفك عن النقيق بحصى أتعمّد أن لا تؤذيه... أقطف ثمار الخرنوب وأقتلع عرانيس الذرّة وسنابل القمح والشعير الخضراء أو التي آن حصادها... هكذا أقضي أيامي في فجّ الـــريح حرّا... حرّا... طليقا كما البريّة لا تولي طرفا لغير الحبّ

والعطف على طبيعة تحضنها باعتزاز... أجري تارة إلى ذروة الجبل وأنـــزل أخرى إلى سحيق الوادي المضطجع في أحضان التلال أشـــرب نقـــاءه وأمتلئ بصمته الموسيقي الشجي فتوهب روحي الأمان الذي تحقّقه العزلة المطهّرة. لكل منّا لحظاته المتفرّدة وأولى لحظـــاتي المخـــتلفة تلك عشتها هناك حيث كنت أحسّني أضاهي الملائكة صفاء وتحرّرا عندما أتخلص من ثقلي وشكلي وأمسي باقة من شذى ونور لا يمكن المسك بها.

ذاك مكـــان يصنع من ألوانه وتضاريسه تناسقا ساحرا وتآلفا فريدا تغني له الروح الغريبة ألحان الفرح الناشز مهما كان إحساسها بالقهر فظيعا. أنا كثيرا ما تمنّيت لو أنني لا أغادر قرية فجّ الريح إلى الأبد وطالما ألححت على جدّتي أن ننتقل لنعيش بمفردنا فيها لكنها كانت تعطف عليّ من عناء مسالك طويلة وعرة يجب عليّ قطعها كـــل صـــباح للوصول إلى مدرسة القرية وخاصّة في فصل الشتاء القاسي برده في تلك المنطقة. أمّا بيّة ابنة بائع الخمور الرديئة خلسة الوافـــدة مـــن أدقع أحياء ضواحي العاصمة فكان يجن جنونها من إمكانيّة معرفة صديقاتها لمسقط رأس زوجها إذ أنها تعتبر ذلك أمرا مهيـــنا يلحق بشخصها الكريم... الإهانة لا يدّخر أولئك جهدا في إلحاقها بها سرّا كلّما سنحت الفرصة لأن الجميع يعرفون وهي فقط الـــتي تنكر إذ أنها تتصوّر أنه ليس للنّاس عيون تتقصّى وآذان تسمع وقلوب لا تبحث إلاّ عن الشماتة ببلاهة الآخرين أو حتى بنباهبتهم وفطنـــتهم إذا عن لها الأمر أيضا. أبي هو الآخر كان لا يخجل من إنكـــار صلته بتلك القرية. أبي كان لا يفهم من أسرار الأرض شيئا يذكـــر... نسي أشجار زيتونها المحملة خيرا عميما تملأ بعد عصره الجرار الطينيّة كي تخزن طول السنة في غرفة المعيشة المظلمة الرطبة المـــتراكم فيها كل ما عزّ على المنازل العصريّة في المدينة إيواؤه...

زيـــت أكاد أنسى اليوم طعمه مهما كان إلحاح العلامات المسجلة عـــلى جودتـــه فـــوق قوارير هزيلة عارية في أروقة المواد الغذائيّة بالمغازات العامّة... نسي أبي خبز الطابون الساخن يتخاطفه الصغار في الصـــباحات القرّة ترافقهم رائحته الذكيّة إلى قاعة القسم معانقة قصائد الرصافي وعنترة والمتنبي و"La Fontaine" ولعل تلك الرائحة الولهـــى اندلقـــت ذات يوم من المنديل البسيط الذي خاطت الأمّ أطـــرافه بغـــرزات غلـــيظة جميلة بعد أن اقتطعته من جزء ما زال متماســـكا في ثـــوب تهرّأ لكثرة الاستعمال... لعلّها لم تصبر على الإغـــراء فانـــزلقـــت خلســـة وتصفّحت قصصا كانت تنام تحت الوســـادة لـــيلا لتنتقل مع خبر الطابون والخذروف الكامدة ألوانه والكجّـــات العـــاتم بلّورها لكثرة تداولها بين الأيدي ونوى التمر والمشـــمش الصـــقيل وباقي الأدوات والكتب إلى الكيس القماشي الضـــخم صباحا... مغارة "علي بابا"... وكنـــز من الظلم الفاجر أن يفـــنى ويطويه النسيان والعدم... وبساطة مزقزقة... محلّقة بألف جـــناح يعطف على وجهها الصافي القلب الصخر ويرقّ... ألست تحن إلى تلك البساطة المغنية يا أبي؟ ألم تبهرك رسومات رائعة لقصّة أقـــزام سبعة حضنوا في القلب الفسيح أميرة الثلج الجميلة؟ ألم تبت اللـــيل مهمومـــا لما أصاب الأمير الطيب عندما مسخه الشرّ حقدا ونقمة ضفدعا لزجا يثير منظره القرف؟ ألم يهتزّ قلبك فرحا عندما أنقذته بواسطة الحبّ البريء من سجن قبحه فتاة عطوفة بسيطة لا تبحث عن غير السعادة تداوي بها القلوب المكلومة؟ ألم تغن وأنت تدوس أوراق الأشجار الصفراء المعولة في الأمسيات الخريفيّة الحزينة الكـــامدة عند أوبتك من المدرسة Il était un petit navire و Joli tambour وأنـــت تؤدي المارش العسكري بخيلاء فقدت معناها في هـــذه الأيّام العصيبة؟ ألم تنشد قصيدة الأرملة المرضعة محاولا تقليد

صديقة جميلة بكت عندما ألقتها بحبّ جارف فمنحها المعلم العدد الأقصى فغبطتها. لا أظنّك فعلت شيئا واحدا من كل ما ذكرت يا أبي لأنّك ضفدع بائس يسكن في سجن قبحه وأنت أكثر شرّا من زوجة الأب الماكرة التي رمت بأميرة الثلج بين براثن المجهول دون رأفة وأنت غول ساحر لا يتقن غير الفتك بأحلام الضعفاء الأبرياء الذين يخجلون من أن تأتي قلوبهم منكرا يغضب الله في سمائه الممتدّة وأنت تريد أن تزلزل عرش الله بكبرك وافترائك... وأنت غبي لا تتقن غير النسيان فتحفظ بعناية فائقة ذاكرتك الهزيلة في طبقة سميكة من الصدإ.

نسي أبي كل شيء... لم يعد أبي يذكر شيئا... صار أبي لا يستمع لغير اسطوانة بيّة المشروخة فهربت منه رائحة الأرض... هربت منه ضحكة الأرض... غفلت عنه وحشة الأرض التي لا ترحم. أبي لم يحاول التذكّر فعاش وهو لا يعرف... عاش وهو لا يحسّ أن رائحة الحياة ترقد في الثرى ناعمة، هادئة، خضراء مورقة وأن من الأرض أيضا تنبعث رائحة الموت والفناء والأشياء المتحللة... ومنها تفوح رائحة الطيب البكر كما يزكم الأنوف عطنها والعفونة... من الأرض تندلق رائحة الشهوة الكاملة المطهّرة وتتدفّق منها رائحة القرف والعزوف عن كل شيء... الأرض من أعماقها تفور الأنهار نضّاخة سلسبيلا تروي عطش الظامئين إلى الحقيقة السراب، والأرض إن حنقت ينفجر جفافها قحطا وتتوالى حمما سجّيلا وأتونا ونسيانا أعجف... الأرض هي وجه الله ونوره في الأعالي وهي وجه الإنسان الذي لا يمكنها التبرّؤ منه مهما كان فناؤه واقعا وأنا لم أرك تفهم هذا مرّة واحدة يا أبي. تلك لعنتها لا أترجّاها أن تعفيك من سطوة غضبها الزمهرير وحكمها عليك بالتشرّد والضياع في مملكة الربّ الذي لن يمنح قلبك الصغير فرحة أن ترى

وجهـــه... أنت لم تعرف في الحياة غير أن تحبّ بيّة وتعشق جسدك المسجّى أمامي الآن يا أبي... ماذا تراك آشتهيت عندما داهمك ملك المـــوت يا أبي؟ عندما يقبض الموت الإنسان تتعاظم شهوته إلى جسد آخر يسرق دفأه مهما كان الحب الذي يحمله له كبيرا وينفجر شبقه. هل ما أقرأه على وجهك هو شهوتك ترتع شامتة على كامل جسدك المتيبّس أيها الممدّد أمامي قاحلا من قدرة على تلبيتها لم تكن تعوزك و لم تكـــن تمنعك عنها الذرائع أو تردّك... كم أحتقرك يا أبي لأنّك دفعـــتني إلى أن أهـــدر عمـــري الداعر بحثا عن كنه الذي يلتمع في عينـــيك... لأنّك أورثتني شهوتك المزرية فافتريت على نفسي وعلى الخلق وما قبضت على غير الرياح المعولة تملأ عليّ عالمي بالوحشة المرّة وبالغـــربة الفاجعة... أمقتك حتى وقد ملأك الموت... تصوّرت أن فراقـــنا ســـيخفّف من حدة الحقد الذي أحمله وحشا كاسرا ينهش أحشائي... جئت حثيثا عندما أخبروني ذات وقت متأخّر ليلا افتكّني مـــن أحضان واحدة لا تشبه الأخريات ولكنها لا تختلف عنهن وعن بيّة أو نادية غثاثة ورخصا وغيابا صاهلا... جئت لا أتدثر بحقد أبحث عن فسحة أمل واحدة كي أصالحك وأنت في رمقك الأخير لكنني ما إن ولجت بهو المنـــزل حتى صكّت أذني حشرجتك الموحشة وزلزلتني نظـــراتك الـــزائغة... داهمتني رائحة غريبة صدّتني عن الإرتماء على جسدك كي أغسله بدموعي التائقة إلى طهري وطهرك... لم تراودني فكرة أنني قد أقضم أظافري ندما على أنني لم أمرّر يدي بين خصلات شـــعرك المتبلّل عرقا و لم ألمس بحنان صدرك المرتفع المرتجف و لم أقبّل وجنتـــيك الشـــاحبتين الممتقعتين... ربما كان ذلك لأنني نسيت منذ وقت مبكّر أن لي أبا يمكن أن أدسّ رأسي بين أعطاف جسده النابض ولحمـــه الذي لم أعد أذكر له رائحة. ما فائدة أن أحضن جسدا لن يصدّه عن دفع حجي بقرف قاهر غير خمود الموت وعجزه؟ ما جدوى

أن أحضن جسدا فارقه النبض ونفره الدفء؟ لماذا أحضن الموت الذي لـــن يزيدني غير صقيع موحش؟ ما فائدة أن تغفر لك أحاسيسي التي جعلـــتها مرتبكة متدهورة يا أبي؟ لا أدري أين استقرّت روحك بعد بضـــع ســـاعة مـــن وصولي يا أبي... أبأعالي السماوات أم بأسافل الأرض؟ كل ما أدريه هو أنه لم يداهمني أدنى شعور بالعطف عليك. قضـــيت بـــاقي الليل حينها أنظر في الفراغ وكأنني واقف بعيدا... بعيدا... أرى الموجودين يعبّرون عن لوعتهم الصادقة أو المفتعلة بلطم خدودهـــم تارة، وبالعويل المقرف ووصف مزاياك تارة أخرى إلى أن جـــاء الشـــيوخ المغسّلون باكرا في الصباح. لم أبك أيضا لما رأيتهم متجمّعين حول جسدك البائس الذي لا ينطوي على شرّ يرى. كانوا يخـــيطون كفنك وهم يثرثرون بصمت مميل فجيع... صارت الدموع شوكا يخزّ مقلتي... لماذا أبكيك؟ أنت ليس لك عندي حق غمطته يا أبي وأنت لا دين لك عليّ... جلست غير بعيد عن المغسّلين أتفحّص وجوههم التي خطّها الزمن دون رأفة وزادتها عشرة الموت كلوحا... كنـــت أراقـــبهم وهـــم يدخلون بعناء لا يخفي الخيط الرفيع في ثلم الإبـــرة... بطؤهـــم يكشـــف وهـــنهم ويفضح رعبا يعبّئ عيونهم الكـــامدة... مثل خيط تماما ندلف من جانب الفتحة كي نندلق من الجانـــب المقابل القريب للفتحة نفسها... حياتنا طول خيط رقيق لا يلبـــث أن يتلاشـــى في قمـــاش كفن قصّ بغير عناية ما دام للتّراب سيؤول... فجأة أسمع رفرفة جناحين أو هكذا تهيّأ لي... تهيأ لي أيضا أنـــني عندما التفتت صوب نافذة الغرفة المشرّعة رأيت بأمّ عيني حدأة ترمقني بكل حقد... ما كل هذا الحقد يا أبي؟ ألتفت إلى أبي الممتقع لونه رعبا... لعلّه أحسّ بالبرد الشديد يسكنه... لن أوصي الغسّالين بتسخين الماء جيّدا كما تحبّه دائما عند الاغتسال يا أبي... لن يدفئك ماء ساخن فائر ولن ينقّيك... لن يوقظك من نومتك الشرسة قاضي

قضاة السماوات والأرض... إشبع الآن موتا باردا... وموتا زؤاما... إستقبل ملكي الموت عندما تقفز المقبرة من آخر المشيّعين... سيقتلعان عينيك ويجزّان أذنيك ويغرسان الإبر في لسانك ثم يمزّقان قلبك وكبدك نتفا ويملآن أحشاءك بالزجاج الحارق...

ينتابني الغثيان... لعل تلك رائحة عود القماري المشتعل الخانقة التي أكرهها... لعلّها رائحة أبي المقرفة تجري لترتمي في أحضاني لأنني لم أنكفئ على جسده و لم أقبّله حتى وهو ميّت... كم كنت أشتهي لو أقبّلك بكل عنف يضطهدني يا أبي... كم كنت أتلظّى شوقا إلى أن أرتمي في حضنك مثل كل الأطفال الذين يحميهم دفء أحضان آبائهم من رعب التفكير في وحشة ما قد يأتي مكشّرا عن الغدر والفقدان... ماذا حملت معك أثقل من حقدي أيها المستلقي أمامي جيفة بائسة لا حول لها... لن أشفق عليك من القماش الأبيض المرعبة نصاعته لن تحمل معك غيره ظاهرا، ولكنّك ستنوء بأحمال أخرى كثيرة لا يمكن رؤيتها رغم أنها ستقصم ظهرك وتمرّغ عزّتك وتضوي قوّتك... أين قراراتك التي كنت تتّخذها دون أن تستشير موتك الآتي على عجل لأنه ساكن فيك مهما ظننته بعيدا عنك... أين أحكامك التي سلّطتها نصالا باترة على من هم دونك جاها؟ أي الأعذار الواهية سأختلق لك حتى تسامحك أحزان الكثيرين الخرقاء... إلى ماذا أعزو جبروتك الذي لا يحق الغفران له... عدوت وراء شارات الشرف والولاء تزركش بها كتفك وكلّما زدت شارة تضاعف تباهيك وبعدت أميالا كثيرة لا تحصى عن رحاب الله وعنك... فرّطت في اعزّ ما تملك من أجل مجد لم تحرزه يا أبي وما جنيت غير الشرّ يترع به عالمك البئيس... وما حصدت سوى الموت ها أنت اليوم تتجرّعه وعيا حتى الثمالة بعد أن كنت تحياه دون أن تحسّه متشبّثا بروحك المتعفّنة... اكرع الموت اليوم ولأرك الآن عاريا

من كل شيء خاصّة من شبقك وشبق التي تبكي بحسرتها بعد الترف الـــذي عاشـــته في ظلالـــك... لا إثمد بعد اليوم سيزعرد في عينيها المزهـــرتين... ولا نسيما عليلا سيمشط شعرها الأسود الليل... يا فرحتها المغتالة باكرا اقتصى لهذا اليتيم الذي انسحق حيفا في تلافيف عهـــر الجمـــيع... يا نـــزقها الذي لا يفتر... يا كفرها المتموّج في نظراتها الهائمة لا تقدر على التحاف الحزن الأصيل... كم عتوت... كم افتريت... كم هان عليك فرح الآخر صلبته وكأنّك لا تفرحين بغـــير غياب فرح الآخرين وكأنّك لا يأتيك الهناء إلاّ إذا ما بيديك أنـــت سملـــت من العيون بهجة لا أدري لماذا يغريك نحرها على عتبة شـــهواتك الفاسقة... لماذا... لماذا... كيف... من أجل ماذا... ما الجدوى... لماذا نمتلئ بكل ذاك الحقد إذا كان الموت يلاحقنا... لماذا نهدر أجمل ما فينا إذا كانت الحياة أقصر من ومضة لا تلبث أن تخمد كـــي يغمـــرها الظـــلام المتوحّش... كيف نسفك أحلامنا وفرحتنا والـــدود لـــن يترك لنا فرصة أن نضحك مرّة واحدة ونحن وحيدون تحـــت التراب البارد... لماذا كل هذا يا نجيب؟ أجدى بك أن تحدث نفســـك لأنّك تجرّعت الحزن زعافا حتى ضاق بفضائك الحزن الذي أماتك وعينك تنظر.

قالـــت لي صفوى ذات يوم: "لماذا لا تترفّع عن كراهيّتك التي يطفـــح بهـــا عالمك الفسيح؟ كيف تصبر على حمل كل تلك النقمة بداخلـــك؟ كيف لا ترتعب من أن تكون مثقّلا بكل ذاك الشرّ؟ إن الحقـــد وزر يا صديقي لا يدمّر غير راعيه... أرجوك أن تتطهّر منه حتى تستحق الحبّ الذي لا يبخل به عليك كل المحيطين بك... أنت جمـــيل وأنـــا أعشـــقك يا نجيب ولا شيء يمنعني من أن أحبّك كما أشتهي أن أحبّك حتى وإن كان سعيد اسماعيل الزيتوني الذي تصرخ كـــل خليّة في أنه رجلي... رجلي أنا فقط وأنا أنثاه التي لا يمكن أن

تخونه ولو بالذاكرة مهما أحبّت رجال الكون كلّهم... أنا لا أخجل من أن أحبّ لأن منتهى خزيي هو أن أكره الآخر مهما بلغت سفالته... ذاك يجعلني أحسّ أنني أتحلّل عفنا".

دلفت إلى حياتي فبؤت بحبّك. أغرتني طفولتك الحزينة التي ظلّت تلازمك حتى وقد بلغت من عمر امرأة عتيّا فعكفت على الاختفاء بين تفاصيلها التي أبت أن تضيّعك بعد أن أنكرتها صبيّة. أرهقني مزاجك المتوتّر الذي لا يرسو على أمان ولا يرضى بوثير... ضيّعني ذهابك بكل ما تملكين إلى الأقاصي مهما كان الخوض فيها علقما. صفوى يا زهرة سقيمة خرجت لتوّها من محارة انتشلتها ضفافي من أعماق بحار العتمة الباهرة... صفوى يا نجمة الصبح المقهورة الموعودة للفناء العاجل... يا فلقا يصدّع الظلام الشاسع... يا فرحة العابرين سريعا الجائعة إلى بعث آخر يعد بالنور... والنور... والنور المتوهّج... من ضلعك الأعوج خرجت أعرج أبحث عن وجهك على سمت القمر وعلى ذرى الجبال الشاهقة وعلى صهوة الغيوم الدائبة السير ألفي فيها ملامحي القديمة البريئة... أنا خائف أن يرتمي في أحضانك فجأة فيسكنك السكون ويخرس صوتك وتتوه لهجتك المحبّبة بتلقائيتها وأنا بعيد عنك... كل الأشياء تشدّني إليك... بيننا تتواطأ مشاعر غريبة أحسّها ترتع في خلايانا... معك أنا أستطيع أن أهادن جسدي وأن أقمع كل شهواتي الناشزة لكنني لا أستطيع أن أتصوّر غيابك عن فضائي المملوء بك... بضحكتك... بنظراتك التائهة... بصوتك الموجع... بجنونك... بكل شيء فيك... لقد كدت أجن يومها... تضرّعت إلى الله أن يعيدك لي ناقصة... مبتورة... مجنونة أكثر مما يحتمل... لكن ان يأخذك إلى هناك فذاك ما لا يمكن أن يصبر عليه قلبي النازف.

* * *

الغـــرفة الواسعة تعبق برائحة الأمصال والأدوية التي تقرفني... الغـــرفة تفـــوح كل أشيائها بالحزن المدمّر يتفاقم في العيون الواهنة المنتظرة في صبر يائس لكل طارئ يمكن أن يحصل رغما عن القلوب الواجفـــة المتضرّعة إلى واهب الحياة أن يمد في الأنفاس أو أن يخمدها لإلجـــام العـــذاب الضـــاري المتوغّل في مسالك الروح الضعيفة حد الكفر... الغرفة تزرع قتامتها الرعب في الأنفس لأن الموت يحوم فوق كل الرؤوس: تلك التي نـــزعت منها تيجانها فأصبحت مليطة بسبب الجلســـات الكهربائـــية والعقاقير الكيميائية ورؤوس الزائرين الذين جـــاؤوا إمّـــا مكـــرهين تأدية للواجب أو لفرط إحساسهم بالخجل والذنـــب، لأن الوحش لم يرتم في غير أحضان الذين يحبّونهم. أحيانا وحتى وإن بدا السؤال غارقا في السخرية السوداء المبكية أو إن شئت قـــل في الســـفاهة المقرفة لا نأنف من أن نلقيه على أنفسنا المتطيّرة: "لمـــاذا هـــم... لمـــاذا لسنا نحن الذين نحمل عنهم شيئا من العذاب المـــتوحش الذي نراه ينهشهم... لماذا نحن عاجزون عن أن نخفّفه أو ننكّصـــه عـــلى أعقابه فيولي مدحورا عاجزا مخلّفا وراءه الأمان..." الغـــرفة يخـــيّم علـــيها مناخ وداع وأنا أرتجف رعبا من أن يصدقني حدسي.

قالـــت لي صـــفوى متكلّفة الابتسام: "لا تخف، هذه المرّة أنا لن أمـــوت لأنني لا أريد ذلك. أمثالنا هم الذين يختارون لحظة موتهم عندما يحسّـــون أن حـــياتهم اكتملت وأن الأرض لم تعد تتّسع لأنفاسهم وأن الـــزمن صـــار لا يبالي بأصواتهم. لن أقرّض بعد لأنني لن أرحل قبل أن أبوح لكل الذين عرفتهم بأنني أحبّهم، وأنني حتى وإن أضمرت لبعضهم الشـــر أحيانا فإنني سرعان ما أدحر رغبتي البلهاء في أن يلحقهم الأذى فـــيعذّب قلوبهـــم الطيّبة أو القاسية الحجر. لن أرحل قبل أن أهب لكل الذين منحوني فرحة إذا ما ضحكوا لي زهرات برية أقطفها من كوكب

نـــاء يتأرجح بين النور والنور يجعلونها تمائم لا يهرم نفاذها في مدارات أرواحهـــم الشاســـعة. سأدحر الحمام وأقف على الركح كل ليلة كي أبعـــث إلى الذيـــن لم يعـــرفوا بعد أنني أعشقهم بكل أشيائهم البسيطة والجمـــيلة رسائل لا تخطئ عناوينها فقط لأنها تحمل بين جناحيها عبارة تهـــوي لها أسوار شاهقة شادها الطغاة ويتراجع منهزما أمامها قبح فادح صنعه زيف فروقات سافلة كرّسها الطمع ورفع أوتادها النسيان: هيّا بنا نحبّ.. هيّا بنا نحبّ... هيّا بنا نفرحّ.

الاقـــتراب الفعلي من الموت ينسي كل الأشياء التي تخطر على البال... هو يجعل الأحاسيس مرتبكة ويهوي بالمرمي في فلكه الأدهم إلى قـــاع اللاوعي... إلى عمق الحكمة المتسرّة بالهذيان... تواصل صفوى وكأنها لم تكن تحكي عن الحبّ وعن النور وعن أزهار الحياة الـــيانعة: "مـــنذ أيام ثلاثة كانت نائمة إلى قربي... هناك في السرير المقابل... كانت تضحك لي أحيانا وكانت لا تنفك تقلّب صفحات كـــتاب الله... وكنت أغبطها على شدّة إيمانها. عندما اصطحبوا لها أصغر أبنائها كانت تهدهده مثل مخبولة نهشت الحيّة رضيعها وكانت هـــي القتيلة... أمام طفلها تلاشى كل الصبر الذي تمسّكت بحبله... قبّلـــته في كل مكان من جسده... ملأت من وجهه عينيها وروحها ونفســـها الذي تتنشّقه بصعوبة لا تخفى والطفل ينظر إليها مشدوها كئيـــبا لا ينـــبس ببنت شفة... كانت شهقات الجميع تأبى أن تكتم وأبت هي أن تعطي طفلها إلاّ بعد أن افتكّوه من حضنها قسرا عندما رأوا جـــزعه وانهيارها. تدهورت حالتها... نقلت بسرعة إلى غرفة العـــناية المركّـــزة... لم تفد أنابيب التنفّس والآلات المتطوّرة في منع المـــوت عنها... أسلمت الروح إلى بارئها اليوم صباحا... ماذا يبقى مـــن المـــوت كي أصفه لكم... ماذا يتبقّى منه بعد أن يغدر بالروح فتصـــعد مكـــرهة إلى السماوات الطباق كي أحكي لكم عنه... لا

شـــيء يـــبقى يا رشيد... لا شيء يا بابا غير ذلك الثقل الذي يجعل الهواء خانقا ينفذ كالحجارة إلى الرئتين المتهرّئتين فيجعلهما منتفختين بجـــروحهما الدامية حد شعور الإنسان بأن العالم أضيق من أن يتّسع لرغبـــته العارمـــة في الانفجار ذرّات تائهة لا يمكن أن ترى إلى تلك الوحشـــة المتوحّشة الناهشة". يبكي سعيد. تنظر في عينيّ. أتمنّى أن أمســـك بـــيديها. تدسّهما بإعياء في يدي سعيد الجالس قربها على السرير تشد عليهما. لا تمل من الحكي: "هل تعرف "والت وايتمان" يـــا سعيد؟ أنا لا أعرف عنه غير الذي قاله في لحظة تتمرّد على عدمه – إذا أردت أن تـــراني بعـــد قرن فانظر تحت قدميك – ربي لم يحرم البســـطاء مـــن حكمته أيضا لأن جدّتي كانت تقول ما هو أبلغ من ذلـــك: "ليس أسهل من أن تريني إن أنت لم ترتكبي حماقة اللامبالاة التي لا تتقن غير التهام أشيائنا الحميمة. إن أنت عزفت عن النسيان يا غالـــية سوف ترين جدّتك التي حملتك نارا لشتاء قبرها حيثما ولّيت بصـــرك وإن بعد ألف سنة". فإن متّ لا داعي لأن تأسف يا نجيب لأنـــك ستجدني معك أصول فوق الركح ما دمت سأحملك، وكل الذيـــن أحببتهم في عالم يضيق بالحبّ قبسات متوهّجة أهزم بها جليد ووحشة قبر ظل يؤويني عمرا كاملا لا ينقص لحظة.

كنـــت أتضـــرّع إلى الله أن يخطـــئ قابض الأرواح طريقه إلى جسدها الممتقع المسجّى فوق السرير. كنت أتوسّل إلى العلي الرحمان محيي العظام وهي رميم أن يغطّيها بحجاب من نور باهر حتى لا يراها الـــذي عطـــف مرّة على طفل رضيع من غدر اليتم فتوانى عن قبض روح أمّـــه بعدما تلقّى أمر ربّه بآداء المهمّة المناطة بعهدته فاجتث الله قلبه حتى يتخلّص من رهق إشفاقه وينجز ما يؤمر به أيا كانت شدّته كمـــا تحكـــي جدّتي. كنت أسأل الله أن يهب صفوى ما يشاء من عمري إذ يكفي أن لا ترحل في هذه اللحظة العسيرة. أتظاهر بالجلد

وأضحك. تحاول صفوى أن تداري رعبها بالحكي المحموم وكأنها به تدحـــر المـــوت المحلّق فوق رأسها. تحاول أن توهم المحيطين بها أنها تتحدى عجزها ويأسها من صراع مع موت يترصّدها باقتفاء تلابيب العـــبارة الرافضـــة... المموّهـــة: "فكرة أن أنتظر ذاك السيد الجليل تسعرني. لا أبغي ترقّبه ولا أرضى بأن أعيش طويلا آخر وأنا مصغية أتخـــيّل وقـــع خطواته القريبة البعيدة المتسللة لذلك فإنني أرفض أن أمـــوت الآن. لا تخـــف مـــن أجلي يا نجيب... أنا متأكّدة من أنني ســـأعود إلـــيكم بعـــد أن تعمل في صدري بشراهة وتشفّ مباضع الجـــرّاحين، وبعـــد أن ترحل بي الأدوية المخدّرة إلى عالم لا يرى إلاّ الألا أريد أن أبلغ ثخومه. تلك لحظة أنا متشوّقة إلى عيشها ما دامت قـــد أرّخت لنفسها في سجل أيامي المغمورة بالحزن الرتيب الذي لا يغـــيّر لونـــه ولا يرضى أن يستعير وجها يخالف الذي تملؤه القتامة وتـــرون وحشته وقهره. تلك لحظة فريدة سأكون خلالها معلّقة بين الســـماء والأرض ولا أعرف إن كنت الآن قد ولجت رحابها لأنني لست أدري إن كنت أعيش الحلم أم أن الحلم هو الذي يعيشني. إني كمـــن يرى في مرآة لا يحد صفاؤها صورة طالما تخفّت عني وها أنا الآن على مشارف استبطان ألوانها النقيّة وتفاصيلها العميقة التي تغفو في دواخـــلي القصيّة والتي لا أستطيع المسك بها خلال حياتي اليوميّة ســـوى مبـــتورة، ناقصة ومشوّهة في أغلب الأحيان. إن رقدتي هذه وإحساسي بأني على شفا الموت هما اللذان يتيحان لي بلوغ ذاك الحد الفاصـــل بـــيني وبين ما ينهشني التوق إلى تجلّيه أمام ناظريّ. تحتشد نفســـي بالرغـــبة والاشتهاء المريب وبالخوف الفاسق من أن أصطدم بنفق آخر تكون عتمته أدهى وأنكل من عتمة النفق الذي عشت فيه عمـــرا لا يقصر تجرّعت خلاله المرار حد الثمالة... أنا خائفة... أنا مرتعـــبة تنـــتهك الـــرؤى المـــزدوجة روحي المثخنة ويعبث الشك

بأحاسيسي الغائمة المشبعة ارتباكا وتدهورا... ترى هل سأمحي بعد هذه اللحظات المشهودة وأؤول إلى العدم... ترى هل سأكون مرّة أخرى بعيدة عن الآن وعن هنا... عارية من ذكرى الأمس الضارية... قاحلة من وجه صفوى... مملوءة بنسيانها... وما جدوى أن أكون من جديد إن كنت قد ملأتني سأما كينونة وعيتها علقما... ترى هل سأعود إلى هنا من جديد دون أن أرى الذي أتلظّى شوقا إلى رؤيته وعندها تكون الخسارة أدهى إذ أنني لن أخرج من رحلتي بغير الخسارة والبتر والعار والمنفى من جديد". تصمت... تتلألأ الدموع في مقلتيها... لا يطول صمتها... تعود إلى الحكي مرّة أخرى وهي تتشبّث بيدي سعيد وهو ينظر إليها بإشفاق: "تتعدّد في حياتنا المنافي لكن الشعور إزاء ما يظل واحدا لأن النفي الأدهى الذي يقضّ مضجعنا، هو ذاك الذي يكون مستقرّه ذاتنا إذا رضخت لقمع الطرد والنفي اللذين يؤجّجان في النفس رغبة في التمرّد السلبي على الحياة وعلى الخنوع لنواميس تستهلك الروح دون ملل وتغيّب الرغبة في المقاومة والاستمرار". الإبرة تبحث بإصرار عن الوريد في الذراع الشاحب لكن المخدّر لا يخرس صوت المريضة فتمضي في هذيانها وتستمرّ شهوة الحكي المخترق أسوار الفضاءات القصيّة لاستبطان مجاهلها: "سأصير بعد قليل غيمة كثيفة شاردة في سماء الله الرحبة... سأسّاقط ماء نقيّا على طفل موجوع شاخ قبل الأوان كي يغتسل ويستعيد طفولته الصافية ويسترجع الأحلام تفتح له الأبواب الموصدة على الفرحة الموعودة... سيكون مائي تميمة مقدّسة تغسل صدأ المفاتيح ويضحو رقية نافذة تطرد السقم عن الأرواح المهزومة... الموت لن يأتي الآن... هو لن يقدر على الفتك بي... لن أموت قبل أن أرى زهراء تعتلي كتفيك وأنت تتجوّل رفقتها في شوارع المدينة وأنت تقول لهم هذه طفلتي أنا لن أكون جديرا بحبها إن أنا ما

جعلت حلمها يتلألأ وستصيح هي بلكنتها المزقزقة في قلبي المرتجف الآن. "هذا بابا أنا وأنا التي سأبرئه من ذنبه ومن جرحه وأنا التي سأبرّد وجعه وأنا التي سأشرح قلبه وأجعله عامرا بالنور وبالفرحة التي سرقت منه باكرا... هذا بابا أنا وأنا التي سأرجع أحلامه المهدورة من عيون الذين آغتالوا ضحكته وأجعلها تزهر... "أنا لن أموت قبل أن أكون مطمئنّة إلى أن زهراء ستصون الوصيّة وتحفظ الأمانة لأنها هي التي ستمسك بالطرف الآخر للحكاية وهي التي سترويها وإن بعد آلاف السنين مهما عهّرت الكلمة أو عزّت العبارة... أليس ما أقوله هو الذي يجب أن يحدث يا سعيد؟".

لا أدري إن كان الطبيب قد ضاعف جرعة المخدّر أو أن صفوى قد استجابت للنّوم وسلّمت نفسها للرّحيل المنتظر على أجنحة من ريبة لا تخلو من أمل كبير في اختراق المجالات القصيّة. طلب منّا الطبيب الجرّاح أن نتركها أنا وسعيد لأنها ستنقل إلى غرفة العمليّات حيث تتوغّل في جسدها المباضع والمقصّات والإبر الحادّة بوحشيّة سافلة.

انبثقت حيّة من الميّتة التي كانتها بعد أيام قليلة. لكنها كانت مشبروخة، مكسورة، لا يمكن أبدا ترميمها: "سأظل أجذّف في ليل طويل مدهم لا أعرف لي فيه سبيلا أخرج منه ولا أجد قوّة كافية أستطيع أن أصد بواسطتها موته الناعق عني فأمحوه من ذاكرتي وأمسح رائحته الموجعة من حيزي". ظلّت عينا صفوى تنضحان بأسئلة مبهمة لا ترحم. ترى هل سترقص مرّة أخرى على خشبة المسرح وتغني كما كانت تؤكد دائما؟ هل سيقبلها الناس بثدي واحد أيسر ذلّه المسخ بعد أن فقد توأمه؟ هل سيتجاهل المسرح أنها أشلاء أنثى تستعرض عل ركحه خيبتها الطافحة وحزنها المديد؟ هل ستتنكّر الحركة المارقة لعشقها أم أنها ستحضنها بعطفها القديم لأنها

وفـدت إلـيها من عمق الحقيقة وقاع الإنسانيّة المقهورة لا يجمّلها الـزيف ولا تـرفع من شأن موهبتها الفذّة الوسائل المتداولة في هذه الأيـام الرخيصـة؟ هل سيعترف لها المسرح بولوجها رحابه منذ البداية بسـيطة لا يحمـيها من رعونة الاندثار غير حبّ جارف لعالم لا يتّسع للعواطف ولا يحتفي بها وصدق ثابت لا يرضخ للمساومات الخسيسة.

فـات على تلك الظروف الرهيبة سنتان، وصورة الموت لا تفتأ تلاحـق صفوى مهما شغلت نفسها عنها حتى أنها صارت عشيرتها. وكـأني بصفوى تصرّ على أن تستدعي موتها لأنها لا تبرأ من حنينها الطـافح إليه مهما كان خوفها من برودة القبر شديدا: "في جسدي ترتع خلايا متمرّدة ترفض موتها كي تنتصر عليّ وتتشفّى بموتي وفيه أيضـا خلايـا تصرّ على موتها باكرا كي تشهد هي الأخرى جنوني وعجزي. أشد ما ينهشني التفكير فيه هو أن يتخلّى عني عقلي وأفقد تدريجـيّا قـدرتي على أن أرى وأن أفهم... أكثر ما يسعرني هو أن أعـيش في غيـبوبة عـن أحاسيسي التي تعوّدت على تحفّزها وعلى رفضـها المـتغطرس لـلخمول والتبلّد. الحياة المميتة والموت الخانع مـتمددّان في خلايايـا جمـيعها يتظافران عليّ كي يحقّقها مع سبق الإصـرار ذبحـي لحظة فلحظة، وأنا بينهما لا أدري إن كان ما زال عـليّ أن أقاوم أم أنه يجب أن أستسلم وأرضخ وأدفع بكل شيء إلى بؤرة النسيان واللامبلاة".

عـادت صفوى. جناحها حزن نبيل وغمام ماطر. عادت من أجل المسرح ومن أجل طفلة ذكيّة من الحيف أن تترك نهبا لغدر اليتم والسـؤال... رجعـت صفوى لزهراء فرحة قلب أمّها الحزين ونور سبيل أبيها الذي ما انفكّ يتوهّج منذ أن وفدت إلى هذا العالم الذي كان يطحنه الفراغ وتملؤه الوحشة.

أنا فقط الذي ليس لي أمّ تهفو إلى احتضاني وتهفو لها روحي مثل سائر الأبناء، اسم ناديا لم يعن لي أبدا أمومة ترتفع بي إلى مراق حيث يتجلّى لي الحبّ البكر فأستبطن للصّفاء معنى آخر لا يدرك في غير حضنك أمي الغائبة... أنا فقط الذي اضطهدت أحاسيسي دون رحمة عندما حرمت من الحنان والمناغاة اللذين أحسّني تقت إليهما صبيّا بائسا، يائسا لا يعتريه غير الخوف والغربة والعزلة لما فقد باكرا وللأبد يدا حنونا تمسح على شعره وتجفّف دموعه أو تدغدغه كي تبعثه على الضحك والقهقهة التي يرفرف لها القلب الكسير. إسم نادية قر وثني يجتاحني في أوج الصيف لأنه لا يذكّرني بامرأة يرقص في مقلتيها الفخر زيّنتني ورافقتني في يومي الأوّل إلى المدرسة كما تفعل كل الأمّهات المعتزّات المتباهيات بأبناء أحشائهنّ، يوصين بلطف وتحبب المدرّسين بهم رفقا حتى لا يتبوّلوا في ثيابهم الجديدة المنتقاة رعبا من الانفصال المباغت. ضحك من بلاهتي أغلب أطفال الفصل يومها بشماتة بريئة عندما فعلتها فانكمشت على نفسي وبكيت بحرقة لم يخفّف من وطأتها غير أحمد الصغير الذي آثر هو الآخر أن يرحل عن عالمي، كما فعل معك رشيد إثر إصابته بالحمّى الدماغيّة التي لم تمهله طويلا فترك في أحشائي حرقة لم يطفئها توالي الأيّام و لم يسكّنها سعيي الدائب إلى النسيان. إسم ناديا لم يكرّس في قلبي غير أطنان من الحقد الرصاص صرت غير قادر على تحمّل تراكمه وثقله الخانق. اللغة لم تعد تؤدي دورها المنشود للتّبليغ إذ لو كان الأمر باختياري لحذفت مفردة أمّ... والدة من كل القواميس أو لجعلتني أصمّ حتى لا يخدش أذني سمعها الذي يثير في الغثيان.

هذه الأوجاع المتوحّشة تمزّقني إربا يا صفوى... هذه الأوجاع التي لا أقدر على استيعاب كنهها وترصّد موقعها في جسدي وروحي

تنهشـــني مهما تصدّيت لها لذلك فهي تجعل مني كائنا هشّا... قميئا ضـــئيلا إلى درجـــة العـــار المذلّ... ألن تعذري بعد الآن توقي إلى ركوب صهوة الشر؟ هلاّ اكتشفت سرّ نقمتي؟

* * *

الفصل الثالث

الأغنية الثالثة

محظية الموت تواصل حكي ليلة ترفض حضن أسرارها

السماء تشد ماءها... القبّة الزرقاء تنكف دموعها التي انهمرت منذ قليل مدرارا والغيوم السوداء الحزينة عباءة قاتمة ممتدّة تلجم آخر أطياف ضوء تسلّل خجلة متواربة... الهواء ثقيل يكبس على الأنفاس وأنـــا أشعر بالاختناق لكنني رغم كل ذلك أحسّني خفيفة وسط هذا العـــالم الذي يقاسمني أوجاعي السحيقة. أحسّني أعبره بكل ما يحويه مثل برق يقضم رتابته وجموده ويجتاح عليه غربته الراسخة. هذا العالم يـــرمي بنفسه بين أحضاني المنهكة وأنا أضمّه إلي بحنان وأنا ألثم كل شـــيء فيه جميلا كان ينضو عن الروح ما شابها من ارتياب فاجر أو قبيحا يدعو إلى القرف والنفور...

وأجـــدني أجـــري وراء جمال خفي متوحّش يسكنه في أعماقه المكينة هذا الذي يتبدّى لي وللعيان قبحا سافلا. ربما في رحمه تتمطّى بدائيتنا... ذاك القبح الذي يضحك شامتا بعذاباتنا وغبننا. ربما لأنّنا وفّقـــنا في أن نمسك بسمات هذه اللحظة التي تتجلّى لنا بكل ما فيها ومـــا يحيط بها يزأر في داخلنا الحنين إلى ماض سحيق نحن متأكّدون مـــن أنه كان ملك أيدينا الممتدّة إليه الآن لكنّنا كنّا حينها لا نهفو إلاّ إلى عيش لحظات أخرى قصيّة نخاف أن لا تأتي فيلهينا طعمها القادم مـــن المجهول والواعد بالمختلف عما هو في حوزتنا. وهاهو الحاضر مـــلء روحنا وقبضتنا الخاويتين الحين. وهاهو طعم هذه اللحظة التي

تضـــمرنا في حـــياة لا تخـــتلف كثيرا عن العدم الفاسق حامضا... حامضا... أتونا كالغياب.

المريـــب في الأمـــر كله هو أن هذه الأشياء التي أصبحت اليوم غائبة في فضائنا الضيق تظل دائما رغم أنّنا نمسك بأصواتها وملامحها لفـــرط هـــروبها إلى الوراء كبيرة في دواخلنا... كبيرة إلى درجة لا نستطيع معها أن نتّسع لنحويها... هي تظل ملتصقة بنا مهما ناء بها الـــزمن تلك الأشياء التي كنّا نعشق لمسها واحتضانها... تلك الأشياء الـــتي كنّا نتعطّر برائحتها المتميّزة إذا ما أطل الصباح رقراقا... تلك الأشـــياء التي كنّا نسعى جاهدين إلى أن نـــزيح عنها أحزانا غاشمة تـــرزح تحـــت وطأتها إذا ما غسق الليل... تلك الأشياء التي وهبتنا أســـرارها رغـــم قسوتها تركتنا بعدها نثرثر ملء وحدتنا أحيانا... نصمت وكأن على رؤوسنا ستنهمر الصواعق الساحقة التي لا سبيل إلى الـــنجاة من الاحتراق بكبريتها أحيانا أخرى... نعيش في أمان... نخاف حد الرعب في ذات اللحظة... نبكي بالتياع فاجع... نضحك لا لشيء إلاّ لأنّنا ملأ قلوبنا السواد... نمارس الحبّ... العدم حتى لا نتّهم بالجمود... نقرف من ملامسة الأجساد المحنّطة... نركض وراء الشـــهقة المفـــتعلة... نتقـــيّأ فرحـــنا بائسا في رحاب ظلمة نفوسنا المهترئة... ونحيا على حافّة الذكرى.

مثلـــنا نحـــن المدينة هي الأخرى تغيب عنها أشياؤها. تبلى... تمحـــي... تفـــنى... تضحو غبارا يذروه الضياع الأعمى لكنها تظل موســـومة في ذاكـــرتها... المسالك... الأرصفة... البيوت الوطيئة والشـــامخة... البنايات الشاهقة الملامسة السحاب... المحطّات الكئيبة التي لا تأنس أبدا لوفاء اللاجئين إلى مقاعدها الخرساء المهجورة مهما عمّـــرت... أصدقائي الراحلون بحثا عن علاقات جديدة أكثر براءة ونقـــاوة... أصـــدقائي المنفيّون في دروب الغواية... هم جميعا قلب

المدينة... نبضاته المنتظمة وقع حياتهم الموعود للأضداد تسير في الفلك على هدى بيّن دون أن تحيد عن طريق سطّره أحد يغمض عينيه الرحبتين عن عذاباتنا.

المدينة محطّات شاسعة يكتنفها المجهول. المدينة واحدة... متعدّدة... المدينة ثابتة... متغيّرة تتعرّف بيسر إلى وجوه عابريها المهرولين دون أن يولوها لفتة اعتراف لكنها رغم ذلك تحضن ذكرياتهم وصورهم المتراكمة المرصوفة وتعطف عليهم فتمنحهم فرصة أن لا يندثروا كثيرا.

* * *

القطار المتوجّه صوب العاصمة لن ينطلق إلاّ بعد ساعة وبضعها وأنا لن أعود إلى المنزل ما دامت أمي على علم بسفري. لن آخذ حاجياتي ولن أصطدم بنظراتها المشفقة تمور بها عيناها الليليتان فتنتصب فارغة أمامي هزيمتي ويزيد إحساسي بأنني حبلى بالخسارة وبالعدم في حاجتي الملحّة إلى الغثيان ولفظ كل أحشائي... ما الضير في أن أواصل تسكّعي في هذه المدينة إذن إلى حين موعد الرحلة.

المخمورون ترعبك نظراتهم الزائغة... السابحة في المجهول... السكارى منهوكو القوى... متهالكون كالمتاع الفارغ... تخبطهم الحيطان الصلبة إذا ما استجاروا بها عسى أن ترحمهم من هول الدوار الفاتك بهم... الشواذ تصفعك مشيتهم المتغنّجة وتخدش أذنيك همساتهم التي تشوبها خشونة مائعة منفّرة... الشواذّ يحميهم الظلام من نظرات ذوي الأخلاق الحميدة المزدرية فيخلعون متبرّمين لباس رجولة يحملونها قهرا في أجسادهم الغضّة ولا يأنفون من أن يقذفوا في وجهك المتفحّص بصوت أنثوي مهجّن بأنّك والآخرين من ألبستهم غدرا ثياب الخطيئة الحلوة التي تتيح لهم فرصة التحرّر بالتحدي...

كل ذلك يحدث ليلا وما إن ينبلج الصباح حتى يفضح النور النظرات المـــرتابة المتّهمة التي لا ترحم وعندها يخلّف الانعتاق الموهوم للجسد الكســـير المخـــذول علقما يجرح الروح ويجلو عنه الفرحة المعيبة... الفتيات الباهر بهاؤهن يلفحك شذى عطورهن المستوردة عن بعد فلا تقـــدر أن تمســـك نظراتك المتطلّعة عن ملاحقة أناقتهن الفائقة وأنا أمقـــت كل ما هو مفرط في الرفاهة رغم إغوائه لأنه يهوي بالفقراء إلى مـــنازل تهين إنسانيتهم وتلحق العار بكرامتهم... الكلاب الضالة والقطط المتشرّدة تقلّب صناديق القمامة بحثا عما يسد رمقها والكل يـــتقاسمون لذّة الانتقام لكبريائهم المهدور بانتهاك ستر أسرار المدينة والكل يتبارون في إذلالها.

يمشـــي بمحاذاتي شابّ يرافقه رجل أجنبي عجوز. نظرات الشاب المـــتهكّمة تثقب الحديد. أنظر إليه بتحد. يهمس السائح المسن لمصاحبه وهو يريه قارورة في كيس بلاستيكي: – C'est très cher mon petit – ويرد عليه الشاب بلا مبالاة لا تخفي ضجره ونفوره: – Tout est cher ici, seul notre humanité et honneur sont moins chers que rien monsieur. Vous voyez combien elle est laide la vie que nous menons. تلتمع خضرة المروج في عيني الشاب تحت ضـــوء الفـــانوس الباهر. يتجاوزني هو ومرافقه بعد أن يرمقني بنظرة ناريـــة وكأنني المارقة الوحيدة في هذا العالم. أخجل من وضعي الذي يـــثير الريبة لكنني أواصل تسكّعي وهيماني مع أصدقاء لم يجمعني بهم غـــير هذا الفضاء المترع بالوحشة وهذه اللحظة التي تشق بتحد سافر غمار كينونة عديمة.

المتشـــرّدون عـــلى الرغم من أن مظهرهم يبعث على الخوف ويدعـــو إلى الاحتراز والحذر فهم يثيرون العطف والشفقة لأنهم أيضا بحاجة لمن يحميهم من سطوة غربة تعوي بأعماقهم الكئيبة المفتّتة التي

تذروهـــا عواصف أيام فاجرة تأبى إلاّ أن تسكنهم في بطنها القاحل المتقلّص.

* * *

المديـــنة العتيقة خلفي الآن وأنا ترمقني الأبنية الخرسانية العالية بعـــيون شـــزرة تحتجّ على قرفي... الأبنية الخرسانية كامدة في لون الـــرماد... الأبنـــية الخرسانية لا يخفى عن المتوغّل في ثخوم شموخها الـــزائف أنها عليلة هتكها الاحتضار الممتدّ... الأبنية الخرسانية تنبثق فجـــأة مثل الكائنات الخرافية، لكنها تولد بسرعة قصوى لكي تهرم وتشـــيخ قبل أن تنتبه إلى أنها تمّت إلى الأماكن بأواصر تجعلها متشبّثة بهـــا والمديـــنة تعطيك فرصة التآلف معها والتعوّد على وجهها الذي تقـــابلك بـــه... الأبنية الخرسانية هامدة... باردة كالجليد... يفقد داخلها التواصل والتآلف مع الخارج فيجنح الكل إلى الوحدة والعزلة تتّشـــح بهما الوجوه المتجهّمة الكئيبة... وأنا وحدي أسير غريبة... أمشي... أسير وأنا خائفة من أن أقف على غفلة منّي... وأنا خائفة مـــن أن ينتهي بي الطريق الممتد في وحشته دون أن أعثر على الذي ضاع منّي...

أحـــيانا أحسّ أنني أضعت شيئا لا يمكنني البتّة العيش بدونه... أبحـــث عـــن اسم هذا المفقود مني فجأة فلا أجده... تتكاثر الأسئلة الخرقاء التي لا يخمدها سهو... ماذا أضعت يا بلهاء؟ ماذا ضاع منك يـــا مســـكينة؟ مـــاذا تاه عنك مرّة أخرى يا مجنونة؟ ولا من مجيب ورأســـي تسحقه مطارق لا ترأف... ثم وفي لحظة خاطفة أتميّز ضوءا باهتا أمامي سرعان ما يصبح باهرا يشد الأبصار... وحينها فقط... أتذكّر... أتصوّر أنها المرّة الأخيرة التي يحدث فيها أن أنسى أن الشيء الوحـــيد الـــذي يجب أن يحزنني ضياعه هو نفسي... وأبدأ في رحلة

البحث عن هذه التي لا أبعاد توحي بوجودها لأن العتمة تطغى على كـــل شيء ويمتد بي التقصّي زمنا لا يقصر فأقنط ثم أحاول النسيان لكنني سرعان ما أعود إلى وخم البحث اللامجدي... عمّ؟ عن الذي لا يهبني اسمه إلاّ بعد أن تعافني المسافة.

أســـير... أسير على وني... لا أدري إن كنت أمشي على يمين الرصـــيف أو على شماله... لا أعرف إن كان البحر المضاجع وحدته يأتي من قبالتي زاحفا فتبتل بمائه المالح ساقاي المرتجفتان بردا ورعبا، أم أن تنهـــيداته الـــتي تصـــلني تباعا ممتدّة في الغربة والوحشة تاتي من ورائي... أنا فقط أمشي وكل ما حولي فقد اتجاهه... وأنا رغم ذلك أســـتفزّ ذكـــرياتي كي لا تكون مسطّحة، وأنا أرفض بإصرار أن يمرّ عمري هباء...

أعشـــقه... أعشقه... أعشق الذي تشغله عني المسافة... أسأل الطـــريق المسفلت إن كان ذات عهد قديم... غارق في القدم قد أثار غـــبار قيلولاته الرامضة المتوهّجة وقع حوافر فرسه الجامح... أسمعها ســـنابك خيله الريح الآن... أنصت إليها تقرع هذه الأرض المبتهجة بانعتاقه وفرحته البدائيّة أثناء تدرّبه القاسي... أمير صغير... ضليل... موعـــود مـــذ شـــبّ لسليلة آل البيت الوافدة من وراء البحار والتي ســـتزفّها الأطماع لاحقا عروسا لا يضاهى صفاؤها لآخر لن يحميها من الارتماء في أحضان الموت ولا هو سيفلح في إنقاذ العرش المغتصب كـــيدا مـــن الاحتراق... ماسينيسا يا آخر الأمجاد... يا ضوءا باهرا يغمر العيون المسمولة... يا وجع الأيام وجرح التاريخ المراوغ... يا عـــبق الذاكرة المبقورة تهبك مكرهة للنّسيان يجهض أحلامك اليانعة، لكنّك تطفو في القلب المنهك كي تتنشّق شيئا من رائحة هذه الأرض المقدّســـة ثم ترتد فزعا كي تثوي بعيدا عن عيون ذئاب ضارية تجري بهوس كي تمتصّ عظامك وتهرسها... الذئاب لا تنال من الأحرار إلاّ

غـــبّ موتهم واستسلامهم للعدم، لكنّك لم تمت يا حبيبي ولم تنهش الذئـــاب لحمك والعظام وأنت راوغت وحشا هائلا لا يخلف موعدا طالمـــا تربّص بك... نم يا سيّدي آمنا... نم يا ذروة صدق الأجداد البعيدين ولك الشرف مهما خانك ولاء أحفاد يغتالون آباءهم دون تردّد واضطهدتك الذاكرة الصدئة.

هـــذا الرجل الذي كنت قد قابلته في يوم ما بعيد... عتيق... هـــذا الرجل المتلألئ الموعود للفرحة الناشزة... أحببته... أحببته... أحببـــته كمـــا أحببت آخرين طوتهم الأيّام وكما أحبّ اليوم هؤلاء الكـــثيرين الذين أعرفهم وأولئك المتخفين الذين لم تجمعني بهم لحظة بكر أتوق إلى ولادتها مشعّة... بهيّة... شاسعة ليس لها مدى... لحظة لا توهـــب جزافا. ربما جمعتني برجلي ذاك أسطورة يلفحني إغواؤها وتقبلني في فضائها الرحب أميرة متوّجة... لا شكّ أن ذاك الرجل هو الآخر أحبّني... أحسّ ذلك بقلبي هذا الذي لا يكذبني لأنه يحن أبدا إلى النـــبش عن ذكراه ويبحث عنه بإصرار متهوّر عجيب في ملامح رشـــيد... نجيـــب... سعيد والآخرين... وآخرين مختلفين ما عدت أذكر أسماءهم لأنهم أجنّة الوهم... وضعهم القدر في طريقي لحظات ليس لها سمات البتّة رغم أنني أصررت على أن أمنحها الحياة ولذلك فقد طواهم وابتلعهم النسيان الذي أتوني منه محمّلين بالفراغ الفاحش والسراب. لكنني أظل أسأل نفسي كيف أمكن لي أن أقع في حبّهم؟ مـــا الذي يجعلني أتورّط في الشعور بأنهم يستحقّون أن أمنحهم ثقتي رغـــم إحساسي المفرط دائما بحقيقة أعماقهم الآسنة. كنت أريد أن أثبـــت لنفسي أنني لست في حاجة إلى أن يخدعني الآخر لأنني أخدع حدســـي عساي أظفر يوما ما بوجهي الذي أحسّه يندلق مني لفرط شعوري بالغربة في هذا الزمن الضحل.

"القلـــوب النبـــيلة هي فقط التي لا تنفكّ تثق بإنسانية الآخرين

مهما كانوا سفلة... النفوس الجليلة هي التي ترفض أن لا تحبّ الناس لأنهـــا كبيرة، ولأن نقاءها يحمي هذا العالم من أدران أضحى يتخبّط في مستنقعاتها الراكدة وأنت ذاك الجزء النقي الذي أفتقده في وفي من حـــولي يـــا صفوى، لذلك أرجوك أن لا تتغيّري حتى لا أخسر كل شـــيء" كان دائما يقول نجيب عبد الباري، وأنا أحسّ أنني لا أعدو أن أكون مغفلة يتجاوزني نسق هذه الحياة التي تقبر في جوفها الحالك الظـــلام براءتنا وبدائيتنا. وأنا أقول تارة أخرى إنني لا أخسر الذين أحـــبّهم هكـــذا عبثا إنّما يحدث ذلك لأنني لاأعدو أن أكون كائنا أجوفـــاً قـــاحلا ما دمت لا أبحث إلا عن الذي لا ترى إليه واضحا أعينهم.

* * *

المديـــنة في اللـــيل تعري نفسها... تنـــزع عنها أعباء كانت تلـــتحفها منذ فلق الصبح حتى آخر النهار كي تلبس غلالتها الشفافة الرخيصـــة تـــارة والرفـــيعة أخرى، وتكشف لك عن فتنتها الحزينة المـــتوارية خلـــف ستار الحياء. المدينة بكل ما فيها تسلّم لك أحيانا نفســـها بقلـــب طاهـــر فتأتيك مشرقة متوهّجة من الأيّام العميقة المضـــخّمة بالحـــبّ وبالبراءة الأولى... هي تنفذ إليك فتتوحد معك وتعـــيرك صـــفاءها وقداستها وهي في أحايين أخرى كثيرة تبدو لك مومســـا تتبرّج بدون تناسق، تعري سوأتها وتضاجع غرباء يدوسونها دون رأفـــة، وعـــندها تتجلّى استكانتها البشعة ويحاصرها خضوعها المذل ويفتضح عارها... المدينة غاوية والليل يحملك على متن عتمته المنفلتة كي يلج بك بيوتا يغريك سكونها المدوي باقتحامها.

جحافل الظلام تعمّ المدينة على عجل والضوء الشبق المتسلّل من

خصاص نوافذ الشفق العالية يخدش السواد العميق ويبوح بالهمسات المكـــتومة والآهات المتلوّعة... الضوء الخافت يدعو بإلحاح إلى هتك خصوصيات الغرف الموصدة وتلك المفتوحة...

عفـــوا سيّدتي... يا صاحبة الشرفة العالية في الطابق الخامس... عذرا إن كنت تسلّلت إلى عقر لحظات ليلتك هذه الحميمة رغم أنّك لم تدعيني إلى مشاركتك قهوتك الساخنة التي تفوح منها رائحة ماء زهر مقطّر سكبته بملل في قعر الفنجان... عفوا سيّدتي الوحيدة إن أنا اجتحـــت عليك غربتك المعتّقة... أنت تنتظرين ذاك الذي خرج و لم يعـــد... أنـــت تحيكين له الصدار تلو الصدار عسى أن تقيه برودة شتاءات قادمة لن تحفل بصمتك الوجيع وتجدلين له الكلمات المرفرفة أغنيات حالمة لا ترعوي... سوف يجيئك سيّدتي... سوف يحل ركبه المهيب سيّدتي الوحيدة... سوف يرتمي في أحضانك المرتجفة، الباردة ارتعابـــا، ســـيّدتي الغريبة... سوف يضاجعك... يعانقك... يقبّلك ويحتويك وحينها يتلاشى خوفك رويدا... رويدا لأنّك ستطيرين... ســـتحلّقين عاليا... عاليا... عاليا على صهوته البراق... ذاك السيّد الـــذي لم تنتظريه أو ربما أنت فقط كنت تتجاهلين موعده الضبابي البعـــيد رغم علاّتك الضارية التي كثيرا ما اشتكيت بمرارة من قسوة آلامهـــا المستفحلة... لكنه سيجيئك حتما ذاك السيد وسيجيئنا نحن أيضـــا متى رأى الأمر يروق صاحب الأمر والنهي... موت لا يخطئ طـــريقا ســـوّاه القدر للّذين لم يجنّبوا أنفسهم وعث الرحلة الخراب فجـــاؤوا... وجئـــت... وجئتُ... وجئنا ويسعى الموت في تلابيبنا حثيثا... لا ينجو من الموت سيّدتي غير أولئك الذين يصرّون على أن لايفدوا إلى حيث نحن محمّلين بالفناء وبالعدم العارم... ما أكثر الذين لم يأتوا... أحسّهم يرفرفون حولنا بخفّة كي يؤكّدوا بأنهم ليس غائبا عنهم وجعنا المريب... ما أكثر الذين أتوا ليملؤوا هذا العالم ضجيجا

عقـيما أحـرس لا يـردع عن دمار فاتك. لا تبكي سيّدتي... لا تبكي... أرجوك لا تبكي فأنا حزينة لأجلك وأنا أعرف قدر خوفك وأنـا أدرك أنـني سأعيش ما حييت قهر أن ترحلي دون أن يكون حَـذاءك شـخص فرد يقدّر حجم العذاب الكاسر الذي سينهشك ويشـاطرك عـناء مفارقـة روحك الجسد النحيل... أبكيك غدا سيّدتي... أبكيك الآن سيّدتي وأبكيك ملتاعة بالأمس... أحفظك في قلـبي حمامة بيضاء تمدل ملء وحدتها رغم أنّك لم تكوني في يوم من الأيّـام صديقتي فأنت كنت تخافين الجميع وأنت كنت لا أحبّة لك غـيره وأنـت كـان يملؤك الشك والارتياب وكان يدمّرك الشعور بالإقصـاء والانفصال... وأنت كنت وحيدة... وحيدة... وحيدة حد الفجيعة.

الـتي لا شـكّ أنّكم ترونها تشرق الآن بالدمع ماتت منذ أمد بعيد... تلك التي تنتحب بصمت مروّع ماتت منذ دقائق لم تحص... تلـك التي ماتت غدا لم يغلق عينيها أحد و لم يطفئ ظمأها إلى نظرة حانـية رفـيق لأن قطّة سوداء فقط كانت تشاطرها عزلتها، فظلّت عيـناها مبحلقتين في الفضاء الشاسع تنظران إلينا حيث نحن متّهمتين الجمـيع بخذلانهـا... تلك التي تترنّم الآن بأغنية موتتها الفريدة لم تـتمكّن صديقتها القطّة من الفرار عندما زكمت أنفها رائحة تحلّل الجسـد المـتعفّن لأن نافذة عالية فقط كانت منفرجة في المطبخ... اندلقـت منها نجمات خفيفات اغتسلت بضوئها الباهر النائمة عميقا ثم التحفت بصفائها الجارح وطارت قبل أن ينفق البطن ويرعى الدود المـنهمر في الأحشاء... ويضحي الجسد غريبا... غريبا... يضحي وصـمة عـلى جبين الزمن الممتد في الهروب... تلك التي تطير عاليا الآن في سماء الله تفضح تواطؤنا ولا تقول إنها تصالحت مع لامبالاتنا وأنانيّتـنا اللتين منعتانا من أن نفهمها ونعذر رعبها المتجذّر... تلك

الـــتي ابتلعها النفق المظلم لا يمكن أن ينبئنا أحد بما آل إليه أمرها بعد أن خفـــت صوتها وتلاشى نفسها وضاعت كلماتها والتهم منـــزلها الصـــمت والفـــراغ ورائحة الجسد الساكن المتحلّل المطرد من حيزه الـــ... فعل النابض حياة.

الفعـــل شـــبح مارد سكنك سيّدتي. حاولت التمرّد عليه فكان ذلـــك جليّا في بحّة صوتك وارتعاشة أطراف أصابعك اللتين تعكسان توتّـــرك الدائم... حاولت إخفاء ذلك ولّما فشلت في إخماده وطمسه لجـــأت إلى تعـــاطي الحبوب المهدّئة لكن هروبك المستطير دائما إلى رحـــاب الفعل الصارخ الحافل بالنبض الجارح قتلك تدريجيّا وها قد مت أيتها الغريبة... وها قد رحلت... أخبريني كيف سلّمت نفسك للجمود... علّميني التعوّد على الموت سيّدتي حتى لا يجفل مني إذا ما احـــتواني جـــثة لا تســـأل غير الفعل الآتي من البعيد الذي لا بد أن يكون.

مكـــرهة أحـــوّل ناظري عن شرفتها التي لا أدري إن كانت مضاءة، أم أن نور القمر المكتمل الليلة قد انعكس على جدرانها كي أرثيك سيّدي أنت أيضا... جسدك المنهك المرمي على الأريكة أتخيّله خلـــف زجاج تلك النافذة الواطئة... لا أنصحك بأن تكفي نفسك عـــناء ما تأتي سيّدي أو توفّر مجهودك لما هو أدهى حين يحلّ... لن أنصحك بأن تلقي بأجيج ذاك السؤال المتوحّش المرعب على روحك الآمـــنة القانعة... لن أنصحك بالعزوف عن قضم تفاحة قشّرتها لك بعـــناية مـــنذ أزل رفيقة حنون لم تتنازل عن إطفاء رغبتها بالرفض والـــتحرّر، فكان الهوي الذي فضح خزي الحقيقة وكان اليقين آخر مخـــتلفا لكنّك ظللت مصرّا على أن تعيش الحلم هربا من المواجهة... لـــن أكـــون فعلا بلهاء كما يتصوّر الكثيرون حتى أفعل ذلك لأنني أعرف أنّك ستحقد عليّ ثم ترميني بالجنون... إنّما أنت لن تقدر أبدا

عـــلى أن تمـــنعني مـــن أن أقول لك بصوت خافت يخترق الحيطان الإسمنتـــيّة ويثقب الأبواب الخشبيّة والفولاذيّة كي يستقرّ في الأحشاء ســـكاكين تمـــزّق الأمعاء وتؤرّب الكبد والفؤاد. إن أطفالك الذين أنامـــتهم مثل ملائكة الرحمان الجميلةُ البسيطة التي تشهق بين يديك مـــلء نشـــوتها الحـــين سيكبرون غدا لكنهم مهما امتد بهم الدهر ســـيأكلهم التراب كما مضغ من قبلهم أسلافهم النسيان... وذريتك ســـيّدي لا تحفـــل بالعدم الآتي الذي لا تمنعه ذريعة... وصلبك على هـــدى مـــن غيّه تبعثره الأيّام ثم تبدّده وأنت لا تلوي على حياة... وأنـــت... وأنـــا... والآخرون... أنا وأنت والآخرون جميعنا نعيش دون أن نعـــي الفضيحة الكبرى موتنا... نحيا الفناء ولا نتخفّف من عـــبء وحدتنا وهزيمتنا بما هو أبجع من الكراهية واللامبالاة... ونحن جمـــيعا شهود على العتمة المتربّصة تلوك أشعّة من ضوء شاحب... شـــاحب تحاول أرواحنا المثخنة جراحا والتي لا تنضب عشقا للحياة أن ترســـله مـــن شقوق نوافذ قصيّة نشرّعها متلهّفين على فضاءات غامضة نختزل فيها الذكرى ونشدو للنّسيان الذي لا يلبث أن يشرخ.

الـــيوم كالغد... أنا سأغمض عيني على الفراغ وكأنني لم أمش يوما على هذه الأرض التي تملأ رائحتها قلبي... وكأنني لم أرتكب في يـــوم ما خطيئة أخجل من استعراضها أمامكم... وكأنني لم أكذب مرّات كثيرة لأنني أخاف... وكأنني لم أسئ مرّات إلى الآخرين، ولم أنفـــث فـــيهم نار حقدي رعبا من أن أداس كما الحشرة تماما دون رأفة... وكأنني لم أظل أحمل رعب ولعنة وصمة ظلّت تتبعني كظلي عندما سرقت وأنا بعد طفلة تكبر ببطء بطاقات صديقتي الجميلة رولا كي أبعثها إلى رشيد لأهنّئه بعيد الفطر ولكنها عند اكتشافها لفعلتي الشـــنيعة لم تزمجر ولم تفضح أمري ذاك للأخريات المتلبّدات الذهن والقلـــب. غضّت الطرف وواجهت خجلي حزني بضحكتها الباذخة

المسـرفة في الـبراءة والحبّ والعطاء... لا أدري حينها إن كنت قد كرهتها لأنها اكتشفت مدى ضعفي وذلي أم أحببتها لجمالها الطفولي الـذي يبعـث على البكاء... اليوم كالغد أنا سأترك هذه الرحاب وكـأنني لم أكـن في مـرّات عديدة نمّامة تقضم بعد فوات الأوان أصابعها ندما لما تأتيه في حق الآخرين وخاصّة في تلك المرّة عندما لم تسلم من لسانها الشحيذ رجاء التي كان كل ذنبها أنها صافية وبيضاء كالثـلج أكـثر مما ينبغي حسب رأيها وأنها كانت جميلة جدّا وان شـعرها المنسدل الحرير يكاد يغطي كل جسدها... اليوم كالغد أنا سـأفارق هذا العالم وكأنني لم أحبّ بهوس أناسا كثيرين... كثيرين هم يملؤونني فأعيش فزع أن يغدر بي وأقفر منهم ومن رائحتهم أيضا فأعبّأ بالظلام الدامس الذي يراودني...

أمـس... اليوم... أو غدا... أو حتى بعد ألف قرن أنا سأغادر هـذا الخـلاء المترع بالخراب... لماذا أجدني إذن دائما أبكي موتاي الذيـن خـانوا فرحة اقترفها خلسة ورحلوا...؟ هل تراهم سيغيبون قليلا ثم يعودون؟ هل تراني سألتقيهم مرّة أخرى؟ هل تراني سأجدهم عـندما يحـين موعـدي على حدود البرزخ مادّين لي الأيادي كي يحضـنوني ويعتصروني ويملؤوني دفـءا وفرحة بكرا وأمانا وسلاما... هـل تراهم سيتعرّفون إلى وجهي العابثة بتقاسيمه الأيّام الداعرة من النظرة الأولى أم أنهم سينكرونني في البداية... سيكون مرّا أن يحيدوا عـني وكأنهم ما كانوا يوما أبناء قلبي الدامي رغم الغياب... وأنت نجيـب... وأنـت سـعيد... وأنت أمي الجميلة... وأنتن رجاء... رولا... سـعاد وزهراء ترى من سيسبق منّا الآخر إلى خطّ الوصول الـذي يقطع الوهم باليقين ويوقظ الوعي من غفوته اللذيذة... ترى من سيجري كي يحضن القادم الجديد المتوجّس فزعا من مملكة الرب الدائمـة الـتي لا تنتهي إلى حدود معلومة ويسأله عن أحبّة ما زالوا

يرفضون أن يلتهمهم خشاش الأرض وهم يبحلقون مثل ذلك الصرّار البئيس الذي سأظل أحتفظ بصورته المرعبة إلى أن أغمض عيني على الفناء. كنت طفلة عندما وجدته أمام باب المطبخ مدهوسا. رأيت النمل المنهمر يرعى جسده المتآكل فأردت أن أرميه في حاوية الفضلات. رفعته بطرف ورقة فما راعني إلا أن رأيت ساقه تتحرّك. تملّكني حينها عطف موجع وخوف لن يمحى من ذاكرتي أبدا. ماذا لو واروني أنا أيضا التراب وبي ثمالة من حياة لا يرى إليها. كيف سأحتمل رؤية الدود النهم وهو ينهش جسدي دون أن يمنحني اللحد الضيّق الذي أثوى فيه والخرق التي تكمّمني القدرة على الحركة للدّفاع اللامجدي عن نفسي؟ كيف سيمكنني تحريك القوالب الاسمنتيّة الثقيلة المغطية رمسي ومن سيتلقّف سمعه الثقيل صراخي الملتاع أو أنيني الممزّق نياط القلب؟ بماذا سيبدأ الدود عندما يقبل على وليمته يا ترى؟ فجيعة أن أعيش ظلمة القبر وأن أرافق حشراته التي لا ترأف تلاحقني كلّما داهمتني صورة الموت البارد. رعب أن أعي عجزي عن أن أصد خشاش الأرض عن التهام مقلتيّ وكبدي وقلبي لا ينفكّ ينهشني.

حيثما ولّيت وجهي يرافقني في اعماقي فنائي وغربتي... حيثما رميت بصري تحملني على متنها مناف شاسعة مقفرة لا يسعها فضاء مهما عظمت رحابته كتب على بوابتها النحاسيّة العريضة التي لا سبيل إلى الإفراج منها إن حصلت لعنة ولوجها وخرق أسرار حصونها المنيعة: "هذه الروح الضالة فريستكم السهلة الحلال... هبوها جرّاء عصيانها وتمرّدها لنصل الغواية الشحيذ!"

إحساسي بأنني أحمل معي عدمي يتفاقم... يقرفني جسدي هذا الذي لا يعدو أن يكون نعشا على صهوته يتنقّل موتي ماكرا... متكبّرا... متعجرفا... ينهشني على مرأى مني ولكني رغم ذلك

أجدني بإرادتي مدفوعة إلى معاشرته.

* * *

ثمّة أحايين كثيرة تصبح فيها أكثر الأشياء عداوة لنا أقرب إلينا من أنفسنا لأنّنا نضطر وإن مكرهين إلى التآلف معها والتعوّد عليها رغم أنها تظل كعهدنا بها دائما عدوانيّة ومرتابة من صداقتنا. نسائلها عن المتاهة التي وفدت علينا منها ولا يجيئنا صارخا مولولا غير المجهول مشرّعا الأبواب على الأتون يصهدنا. هب أن الموت عرّى لكل منّا وجهه مرّة واحدة وقال: "هذا أنا" هل ترانا كنّا نعيش هذا التيه الذي لا جدوى تدرك من ورائه طالما أن نهايتنا محتومة؟ هب أن الموت فرّجنا على المجالات التي سيبعث بنا إلى حيزها إثر مداهمته لأرواحنا المرتبكة هل كنّا نسائل النفس عن العبرة من وجود نحسّه ماحلا ما دام لا يفتح عل غير التهشّم والتحلّل؟ أحاسيسنا تفد علينا من بؤرة الغربة في زمان ومكان هما ليسا ملك أيدينا الخاوية لذلك فهي تكبّلنا بالدهشة والحيرة والقنوط فنظل إزاءها غير قادرين على ولوج تخوم الإدراك والوعي. إلى أين سيحملني غدي؟ أقترف الرعب وأتصوّر أن لا شيء غير الأدهى يترصّدني مكشّرا عن خساسته، متشفّيا بعرائي المخجل.

هل كل الذي يمرّ أمامي الآن من صور مشوّشة تارة ومنمّقة تارة أخرى... باهتة طورا وصافية رقراقة طورا آخر أنا التي تحكيني أحداث مارقة تعرضها؟ هل تلك التي كانت تحيا بالأمس هي فعلا أنا؟ هل أنا فعلا الآن أم غدا؟ هل أنا حقيقة هنا أوهناك أو حيث لا مكان ولا زمان؟ هل سأستطيع في اليوم التالي أن أفتح عيني على ضوء الشمس المشعّ أم أنني سأستمرّ في نومي إلى الأبد أو لعلّني بعد حين ستدوسني سيّارة تشبه تلك التي أرعبت أبي ذات يوم، أو أسقط

إثـــر جلطة دماغية فيهرول المارّون لانقاذ حياتي ظنّا منهم أنه أغمي عـــليّ لحين وسوف تأتي سيّارة الإسعاف زاعقة لتحمل جثتي الهامدة إلى غـــرفة الموتـــى في أقرب مستشفى حكومي، ولن يستردّني أهلي الذيـــن سعرتهم مصيبة فقدي وأنا بعد في أوج شبابي كما يدّعون إلاّ بعـــد تشريحي واستخراج أحشائي لاكتشاف أسباب وفاتي المفاجئة المريـــبة. ولعلّني سأوارى التراب ناقصة كلية قد لاتجدي أو كبدا فتته الحـــزن. هل هذه الحياة ملكي إذا كان يجب عليّ أن أعيشها وكأنني لست أنا التي سأترك ذات يوم وحيدة باردة تحت التراب المبتلّ؟

* * *

لم يكـــن كفرا جدّتي... لم يكن عبثا والله جدّتي... حفيدتك الـــتي طالمـــا دللّتها فقط تهذي... هذا زمن ينكرني جدّتي... أجري وراءه... أبحـــث في الوجوه عن وجه قد يذكّرني بوجهي الضائع فلا تطـــبق عيـــناي على غير العدم الساحق والفراغ المريب... لا أحد يشـــبهني في هـــذه الحياة الميتة غير البعيدين... هل تراني لا أعدو أن أكـــون جســـما هلاميّا تسبّبت في وجوده فكرة حمقاء خارجة عن الأزمـــنة القحّـــة؟ أتراني روحا انفلتت من عقالها لذلك حكم عليها بالتـــيه والتشرّد الأزليين؟ أنا لست أرغب في أن أخلع نفسي من هذا الزمن الذي جئت إليه قسرا لكنني أريد منه أن يكون ذا وجه سافر لا أعيش هول الضياع الممضّ في شعابه المتشابكة... قولي لي جدّتي هل تقدرين أنت على استيعاب فكرة أن خالقنا الرحمان يمكن أن يستمتع بعذابات أي من عباده مهما استفحل شرّه وعصيانه؟ إنني أتعذّب شرّ العـــذاب لأنني جاهلة جدّتي... إنني مشلولة عاجزة... إنني لا أحسّ بمـــا حـــولي كما ينبغي... إنني لا أفهم شيئا مما يدور في فلكي ولا أســـتوعب مغزى ما يجري... لقد اكتشفت أنني لا أعيش غير يقين

وهـــم الحقـــيقة... بتّ لا أدرك غير كنه حقيقة الزيف الذي يطوّح بآخر قناعاتي وأنا مفرغة من الوضوح جدّتي وأنا لا شيء يملك عليّ أمـــري غـــير حواسي التي تبدو للجميع خاطئة هوجاء، وأنا أرفض بتشنّج السقوط في لجّ السكون الذي لا يعقبه زلزال وآنفجار مروّعان وأنـــا أخاف الصمت الذي لا يتخلّله ضجيج أرقص على وقعه مثل وردة الآلام المعرّشـــة دومـــا في فـــيافي الروح الزاخرة المثقلة بالوهم والانكسار... وأنا ليس مطلوبا مني غير أن أخرس...

أحـــسّ أنني أجري حثيثا نحو نهايتي جدّتي... أحسّ أنني أهوي بســـرعة قصـــوى في أعماق سحيقة مظلمة ولا قبل لي على مقاومة لحظـــة الاصطدام الوشيكة. خائفة أنا جدّتي لأنني لا أفقه سرّ أشياء غريبة كثيرة لا أعرفها ولا أراها لكنها تضجّ بكل حرية حولي... أنا فقط أحسّ أنني حبلى بهذه الأشياء المحتشدة بداخلي الهشّ... أنا فقط مـــتأكّدة من أنني أحبها حبّا أسود... كليما... يائسا جدّتي... كم هـــو جمـــيل أن نحبّ أشياء دون أن نعرفها... كم هو مرّ أن تشرق بداخلـــنا موجـــودات لا يمكـــن أن نمسكها حتى أنها تضحو صنو الفـــراغ... كـــم جميل مروّع أن تغمر كياننا هذه الأشياء الممعنة في صغرها وكبرها... المتمنّعة أحيانا... الوهّابة نفسها في أحايين أخرى قليلة... المنطفئة... المتوهّجة في لحظات يقظتنا القصيرة كعمر الطيّبين الذين لا يلبثون في عالمنا غير قدر لمعة برق ثم يقفلون راجعين محمّلين بالحـــبّ والحنين وبأشيائنا النادرة التي لن تعود إلى أحضاننا الراجفة، تاركين أرواحنا المكلومة تجترّ قهر الخسران الفادح والغيظ الكظيم.

يعـــن لي أن أحكـــي أحيانا... أحكي باطّراد إلى أن تتبرّم مني الحكايـــة، وفي أحـــايين أخـــرى كثيرة يحملني في مداه الشاسع هذا الصمّت الغريب الذي تصطخب في مجاله اللامتناهي أصوات مغايرة لا تـــبلغ أسماع غير أصدقاء الله... صديقة الله أنا نعم... رغم بجاحتي

ورغـــم سماحـــتهم الجوفـــاء الـــتي لا تجلجل في أعماقها غير الرياح الصرصـــر... يـــا بهـــتانهم هـــلاّ رقصت نشوة على وقع انتصارك وهزيمتي... يا فجيعتي فيهم، زغردي وولولي ولا تتطيّري من فرحهم الأعمى.

* * *

النســـيان طريق الفردوس المترع بالفرحة الصاهلة... الأمان هو مفـــتاح الذاكـــرة الصدئة الضائع في غياهب المجهول الفاتك كنت تقولـــين جدّودتي... ولا أدري إن كنت في كلامك جادّة أم هازلة. أنـــا ينفرني النسيان جدّتي ولا يهفو إلى عالمي الحلم الزاهر وأنا دائما أهمـــس لنفســـي المصفدة المنكسرة بأنه أهون عليّ أن أعيش مرارة الوعي بهزيمتي من أن أحيا مطمئنّة في عتمة الوهم بالانتصار المدقع... وها أنا يحوّلني الشعور بالفقد إلى هيكل متداع من الرعب... خائفة جدّتي... خائفة وأنا أحبّك بعنف كما يحبّ نجيب جدّته وأكثر.

رشـــيد أيضا يحبّ جدّته... رشيد كان خائفا لذلك قتل نفسه تبريرا لهذا الحبّ وخلاصا من الرعب الذي ما انفك يطوّقه... رشيد كـــان مهووســـا بحبّ جدّته ولا تغترّوا إن كان يصرّ دوما بانفعال مخـــيف عـــلى أنه يبغي أن يفصم مع أجداده الذين يقول إنهم سبب نكبـــته الداهية... إصرار رشيد يكرّس بداخلي أحاسيس لن تكذّبها أوراقـــه المنسية الصارخة بأنه عاشق متيّم بأسلافه رغم الذي حدث. هو من كان يحثنا بطرق ملتوية على الخوض في سيرتهم كي يقول إنه يمقـــتهم وينقم عليهم، بينما البريق الملتمع في عينيه يثبت أنه لا يفعل ذلك إلاّ لإحساسه بضرورة أن يغسل عارهم ويطهّرهم من خطاياهم بالكراهـــية فكانت حياته خير قربان أراد رشيد أن يتقرّب به إلى الله الغاضب كي يكفّر عن ذنوب جمّة لم يرتكبها... بل لعل رشيد بصق

مـــرارة روحـــه انتحارا لأنه كان يحسّ بالفخر بجدوده رغم قرفه مما أتـــوه، ولأنـــه خـــائف مـــن أن يرتكب نفس حماقاتهم الناجمة عن إحساســـهم المفـــرط بالـــتفوّق والتعالي والتي كثيرا ما بحث لها عند اختلائه بنفسه عن تعلاّت واهية الإقناع تستدعي الغفران لهم.

نحـــن جميعا نحبّ جدّاتنا. نحن لا نشبه غير أنفسنا عندما نحبّ جدّاتنا لأنهن الحبل السري الذي يمسكنا من عل... من بعيد إلى نقطة محددة لا تحوي غيرنا في هذا العالم الذي نحسّه غريبا عنّا مهما حاولنا التآلف معه... نحن لا يحقق تصالحنا البارق مع وجودنا غير ذكريات بعيدة تتناسق مع مشاهد حميمة تراودنا فلا نقف لها على أثر بيّن.

جدّتي يا سرّة العالم الرفيعة أحن إليك فأقف كاسفة البال على حافـــة الذكرى أرنو إلى ليال بعيدة هناك حيث بيتنا الفسيح البسيط المنتصـــب شامخا والممتدّة باحته ترتع فيها خيول الباي بل كل خيول افريقـــية... وأنا اتشبّث بركبتيك كأنني مرتعبة من أن تهربي مني على حين غرّة، وأنت تشوين كيزان الذرة المصقولة على نار تكاد تكون مطفـــأة وأنت تغنّين لي بعذوبة لا يمكن للكلمات الداعرة المهترئة أن تصفها حكاية عليّ ولد السلطان الذي خطف حبيبته الغول وخبّأها في دهلـــيز مظلم... مظلم ليس له نهاية لكن شعر عائشة الطويل يدل عـــليّ إلى طريق الخلاص وأنا أتلمّس ظفيرتي المجعّدتين بأسى لا يمكن حكيه وأنا أتنهّد حسرة. وأنا في كل مرّة تعيدين عليّ الحكاية التي لم أكـــفّ عن محبّتها تتلاحق أنفاسي المتقطّعة مع الأحداث التي تحافظين دائمـــا بكل براعة على عادتك في تحويرها والإضافة إليها... وكأنّك جدّتي ما خلقت إلاّ لكي تحكي... وتحكي... وتنبشي عن الذكرى البعـــيدة غـــبار النسيان المتراكم... وكأنّك جدّتي مرآة الأيّام القديمة المـــتجدّدة أبدا التي لا يخدش صفاءها الضباب رغم أنّك تصرّين على أن النســـيان هو الوحيد محقّق الأمان المنشود... وأنا تمزّقني اللهفة إلى

تلك الساعات الجميلة أحيك من جلالها قدرتي على مداومة كثيرا ما أحسست أنها عديمة الجدوى... ما عاد الصغار يخافون من أغوال اندثرت سيرتهم في أيامنا هذه جدّتي... ما أكثر أغوال هذا الحاضر يزركشون الأحلام الموؤودة ثم يرمسونها بدون تردّد على نخب شهواتهم المزرية في بئار عميقة القرار... ما أفظع غطرسة أغوال هذه الأيّام يغتالون الذاكرة ويمهّدون للعماء فجوات تؤدي إلى السقوط الفاجع المدمّر الذي ليس بعده قيام... كم صارت بئيسة آمالنا جدّتي تسلّم نفسها دون رفق بهشاشتنا المخزية إلى المقصلة الباردة.

* * *

كلّما مضت بي الأيّام أحسستني أكثر استلابا. كان وعيي الباكر بأنني مغتصبة مني جل أشيائي سببا في عكوفي عن أن أكون أنا. لا إرادتي كانت ملك يدي ألوّح بسطوتها في وجوه الذين يكشّرون عن طمعهم في امتلاك كل شيء... ولا جسدي كان طوع رغبتي في أن أكون متحرّرة من ثقله الخانق ما دام شعوري العميق لا يني يذكّرني بأنه محتشد بعورات منفّرة وجب عليّ الانتباه باستمرار إلى ضرورة حجبها وسترها عن الأنظار المتوحّشة الضالة كما لا ينفكّون يردّدون... ولا عقلي كان سيّد قراري... كما عشت وأنا أحمل في أعماقي استعدادا مفرطا لخيانة أحاسيسي وقمعها... أتعسّف على حاجاتي الطبيعية التي نشأت معي فأطمسها وأتناساها رغم أنها منقوشة في جزء الذاكرة الخاملة العازفة عن الرؤية الجليّة ثم أدّعي أنني أرفض الوصاية والتبعيّة والرضوخ بينما الحقيقة هي أنني أعيش التمرّد الزائف إذ لا أظنني أتحدى به غير نفسي المضطهدة ولا أراني أدوس على غير ذاتي التي لم أوفّق في أن أجعلها بريئة من كل عورات ونقائص منفّرة تلاحقها. أنا لا أعرف نفسي لأنها ترفض سلبيّتي

وانهزاميتي... أنا لا أعرف جسدي لكنني أعشقه وأعطف عليه رغم أنني لم أفلح مرّة واحدة في اكتشافه فأنا لا أملك جرأة أن أراه حقيقة ثابتة في حياتي ما دام لا يعدو أن يكون عارا أنا مضطرّة كما الكثيرات على أن أنوء بحمله الثقيل كالرصاص على نفسي... أنا لا أفهم شيئا وأنا جدّا غبيّة.

هكذا نموت ممزّقة... مشتّتة لا سبيل إلى لملمة أشلائي... كنت هنا... كنت هناك كنت أنتَ... كنت أنت... كنت هم... الآخرين غالبا... لكن هل كنت أنا فعلا؟ حتما لا إذ أنني كنت أحسّني أنا لماما لأنني عشت تائهة... بعيدة... مسلوبة... كل ذلك الحزن القاتم الذي ترعرعت في رحمه من أين جاءني يا ترى؟ سؤال بليد لا أدري لماذا أعجز دوما عن الخوض فيه ثم الفصل بحسم... هذه أنا مزيج من تبلّد ذهني لا يقدّر، وذكاء يراه الآخرون كافيا لأن يبوّئني أحسن المراتب ما دمت مختلفة... تلك أنا خليط يتعكّر من حبّ لا متناه لنفسي وكراهية لا تنضب حتى في أقصى حالات الاعتزاز... كتلة من نشاط متوهّج وخمول فاجع يحاكي الموت الزؤام... هذه أنا بكل ما في أمثل لعنة تناقضات كثيرا ما تصدم الذين حولي... لعنة الأشياء الخفيّة المتناثرة التي هي ربما لا توجد في غير رأسي هذا المثقل حيفا على كتفي الواهنين تلاحقني... أركض وراء التفاصيل المتخالفة فتتملّكني وأصير عبدها المصفّدة التي لا حول لها ولا إرادة... أحسّها نصال نار شرسة، مزمجرة حادة تخترق جسدي وأحشائي... تملأ عالمي رائحة اللحم الآدمي المحترق التي تقزّزني وتدفعني إلى التقيّء... وأهرب... أهرب... أمعن في الفرار وأجدني قريبة منك جدّتي... قريبة...؟ وأراك تمشين... تهرولين وقدماك الحافيتان لا تطآن الأرض ولا تدغدغهما ذرّات التراب... ثم أراك واقفة ترقبينني بوجهك الخال من أي تعبير أفهمه... وأراني

كلّما ركضت وقطعت المسافات الطويلة إليك ازددت نأيا عني رغم أنّك لم تتحرّكي من النقطة التي تضمّك في حيزها... وأراك أخيرا تضحكين مثل زهرة تفرج وريقاتها الناصعة عن جمال عزيز يعطف عليه القلب أو هكذا يبدو لي إذ أن بي شوقا عميما إلى ضحكتك الواعدة بالفلق المنير وبالربيع وبعودة الفصول الهاربة... ويتهيّأ لي أيضا أنني أسمعك تناديني "يا صغيرتي العزيزة هلمي إلى حضني الرحب يحميك من قرّ الأيّام المجدبة". لكن صوتك هارب... ولكنني باردة جدّتي... باردة... والصقيع ينهشني رغم أنني أحبّك لأنّك مثل الطيبين خلّفت في أثرك انتصارات صغيرة وانهزامات مدمية رسّخت في عالمي شرف التوق إلى اختراق المجهول... أنت لست كالذين ماتوا وتركوا قصورا شامخة تتبرّأ أحجارها من ذكراهم لفرط موتهم لما كانوا يعمّرونها عسفا بخرابهم الموحش.

أعشقك جدّتي لأنّك علّمتني أن لا أكون بليدة الحسّ أمام غربة الأشياء الرموز المغلقة وجعلتني أكتشف رحابها الفسيحة وأغزوها رغم يقيني من سوء المآل. كم تقت إلى أن أكون ذرّة رمل متناهية في صغرها تجول في غابات تستحمّ بأبخرة اليانسون والرند والصّعتر طالما وصفتها لي في قصصك الوارفة بإطناب... كم تقت إلى أن أكون سمكة قزحيّة تتآلف في جسمها الضئيل كل الألوان وتحملها الأمواج العتيّة إلى ضفاف مترامية عذراء كنت تحطّين بأبطال حكاياك الغريبة على رمالها التي لم يطأها إنسان... من منكم تمنّى مثلي أن يكون حبّة رمل لا يحدد وجهتها كائن من كان... هل يمكن أن تتمنّى أنت يا نجيب أن تكون سمكة تختفي بألوانها وتنسى في خضمّ انعتاقها وحشيّة الآتي... حتما لا فأنت رجل الجزم والقطع والقرارات العميقة الحازمة رغم إنكارك ذلك وتظاهرك بالنفور من كل ما هو ثابت. أمّا أنا فأبحث عن زمن ولو متناه في القصر أملك

خلاله إرادتي المهدرة أيا كان شكلها وأتحرّر في حيزه من خوف أقبع سجينة كسيرة في أروقته المتعرّجة المبهمة.

تلك أنا أحبّ أشيائي حد الامتلاء وأكرهها... أكرهها بعنف... أسرف في كراهيتها حد الغثيان... تلك أنا تعبث بي الأضداد فتبتلعني تخوم الحزن الممتدّة عندما أكون في أوج فرحتي ويستبد بي الشك والريبة عندما أبلغ ذروة ما أخاله يقينا... يجتاحني إحساس رهيب بأنني جرداء يصفرّ بين حواني العجز المهين ثم يوليني الله فجأة أمر الرياح الكواسر أسيّرها بيسر وفق شهواتي... تلك أنا أظل متأرجحة بين وفاق مع موت صارم قد لا يفتح أبدا على الضوء وعداء لحياة مريبة لا تختلف عن الفناء... تلك أنا أظل ممزّقة بين رغبة جامحة في الموت العارم وتوق إلى أن أحيا... أحيا لحظة تنتشر دون أن تكرّر نفسها مهما تناسخت الأيّام... تلك أنا حبيبة كل الأمكنة والأزمنة تحتفي بي عروسا لا توهب أبدا للموت وسيّدة اللازمان واللامكان المحلّقة في فراغ العدم الشاسع. أظل أغلي... أغلي فيئجّ داخلي ويصبح لساني صخرة صلدة حادّة تسد حلقي الدامي.

لا ملجأ لي في هذه الصحراء الموحشة غير حضنك جدّتي ألوذ به عندما يداهمني طوفان وجع قاهر يكبّلني ويمتصّ إرادتي دون هوادة. لا مناص لي من رمضاء هذا العذاب غير قلبك الواسع أختبئ بين ثناياه من مرارتي وانكساري المقرف لكنّك مصرّة على الرحيل وممعنة في الغياب وكأنّك لا تولين اهتماما إلى المصيبة التي أتخبّط في لجاجها العاتية.

لماذا رحلت جدّتي؟ لماذا لا تبرئين حنيني إليك؟ غرفتك التي لم أفلح يوما في نيل رضائك عن تنظيمي لها ما زلت مشتاقة كي تحوينا في ليالي الشتاء القرّة... كنت تجحفين في حقي جدّتي بعتابك إذ كنت آنذاك صبيّة لم تتعوّد يداي الضامرتان على الترتيب والتنظيم

اللذيـــن لم أوفـــق إلى غايـــة يوم الخلق هذا في تحقيقهما مهما كان جهـــدي المبذول كبيرا. لم يفقه عقلي حتى الآن سرّ هوسك بغرفتك الأنـــيقة دائمـــا وكنت أتمزّق كمدا عندما أراك متوتّرة لاعنة الظلام الدامـــس الذي عشّش في مقلتيك المطفأتين وحرمك متعة أن تقومي بمفردك بشؤونك... فراشك الوثير ما زلت أتملاّه من بعيد، ظامئا إلى حكايـــاتك جـــدّتي تسردينها بمتعة ورويّة فتصبح الحيطان شاشات تحضن المروج الراقصة وعرائس الفرسان الموعودين للبطولات الدافقة الغابـــرة ويصبح للغرفة روح متعدّدة تتسابق إليها النجوم الزاهرات فـــتعمّ البهجة ويندثر الحزن وتصبح اللحظة أعراسا بهيّة لا يمكن أن يطولها أبدا الحاضر.

رحلـــت جدّتي... قولي لي لمن سيبتهج الصباح إذا ما نشر غدا ضـــوءه الشاســـع في ملكـــوت الله؟ على وقع شقشقة وضوء من ستســـتيقظ العصافير الغافية فجرا؟ أي ظفائر فضية ستداعب بمحبّة شمس الغد آناء بزوغها الخجل أو الساطع؟

هربـــت جـــدّتي... ما رجعت جدّتي التي ما عهدتها تصبر على فراق منـــزلها المبني بسيل عرقها ودمها كما لا تنفكّ دائما تحكي... مـــا عادت جدّتي من رحلتها الطويلة حتى أن خطاها الحثيثة كانت اللـــيلة بـــلا صـــدى... بلا تعبير... بلا حياة... ضحكتها كانت عارية... باردة... لا تدفئ... وكل شيء تحالف على وجيعتي الليلة.

أحسّني غبيّة. لا أراني البتّة ذكيّة كما يتبادر إلى الأذهان... قد أكـــون متفوّقة في أمور كثيرة يتصوّر الجميع أنها هي فقط التي تحدد نسبة الذكاء لدى المرء... الدراسة مثلا... النجاح المهنيّ... النجاح في العلاقـــات الاجتماعية... لكن الواقع هو أن ما نتصوّره نجاحا لا يـــنجم عن ذكاء خارق حتما... الذكاء قد يؤدي إلى الفشل الذريع المدمّـــر والخســـارة الداهية، وأنا مدمّرة جدّتي لأنني فرطت في أشياء

كـــثيرة لا تحصى يعزّ عليّ فقدها... ثمّة أذكياء كثيرون لا ينجحون ولـــو قليلا وأغبياء يقتحمون بكل جرأة وبسالة دروب التالق المطّرد رغم أن بلادهم الذهنية والحسية تكاد تصفعك... أنا لا أدري كيف لا يخجـــل أولئك من محدودية آفاقهم وصفاقة أحلامهم المشبوهة... هـــم ربمـــا يســـتمدّون تلك الثقة البلهاء بمشروعيّة رؤيتهم المدقعة المـــتجاوزة حد الغرور من غبائهم المفرط وقصور حساسيّتهم اتّجاه احـــترامهم لذواتهـــم... شعورهم بالاستقرار الذي لا أدري كيف يجيئهم يجعلهم يتطلّعون بشغف إلى نيل كل ما يمكن أن تطوله أيديهم القـــذرة ولا يصدّهم عن بلوغ مأربهم الدنيئة رادع... وأنا غبيّة... أعـــرف... لكـــنني لا أقـــدر على طمس غبائي المفرط ولا تراودني الأحـــلام الكـــبيرة الفاجرة التي لا أرى لها جدوى لأنها لن تمنع عني حزنا كاسرا ترعرع في كل تجاويف روحي المدمّرة... وأنا ذكيّة... ذكيّة جدا... ذكيّة حد الغباء.

أنـــا فشلت في كل شيء ما دمت فاقدة الأمان جدّتي... لكنني أرى... أرى مـــا لا يرون عادة... أجل أنا أرى جدّتي ورؤيتي تثقب الظـــلام الدامـــس... تدرين لماذا جدّتي؟ أنا أرى فقط لأنني أحبّ وليصـــرخ كل ما في الكون أنني أنثى غبيّة لا تفقه شيئا آخر غير أن تحـــبّ مهما كان دمارها فاتكا... أنا أحبّ كل شيء حتى وإن قلت العكـــس جدّتي... أنا لم أقدر حتى على أن أمنع نفسي من أن أحبّ الموت رغم أنه يأتيني مخيفا مقزّزا برائحته التي تشبه رائحة الدم القديم المتخثر والبيض الفاسد المتعفّن... هل تتصوّرين جدّتي أن يكون هناك مـــن يحـــبّ المـــوت على هذه البسيطة؟ أجل أنا أحبّه... أنا حبلى بـــالموت... أحملـــه جنيـــنا خامدا في أحشائي المرتبكة النافرة... أنا صديقة الموت رغم أنه يتواطؤ عليّ في عقر رحمي... كثيرون يموتون مـــرّة واحدة أمّا أنا فأموت أغلب لحظات عمري... يغيب عني موتي

نـــــزرا لكي يأتيني بعدها محمّلا بوحشته وحقده ولكنني أظل أحبّه ولا اعتـــب عليه سوى أنه لا يأتيني واضحا مثله مثل أشيائي الأخرى الكثيرة التي تسلّم لي نفسها ملتحفة بالضباب وبالدخان وبالرماد.

لمـــاذا أحاول دائما نكران حقيقة لا تغيب عنّي...؟ لماذا أسعى إلى إخفاء حقيقة الأمر؟ الموت لا يؤلم كثيرا رغم أنه مرعب... نحن عـــندما نمـــوت نحـــسّ بـــراحة لذيذة... نحسّ بخفّة ينعدم لها وزننا ونطير... نطير... نحلّق بحرية لا تبتر... كيف اكتشفت ذلك وأنا ما زلـــت أحـــيا...؟ أنا أحلم دائما أنني بصدد الموت... أتصدّى له في البداية بخوف ورعب لكنني عندما أيقن أن روحي بلغت الحنجرة وأن الحياة قد فارقتني وأنه لم يعد يجدي إصراري على البقاء، أسلّم أمري لمـــالك الأنفس وأصبح أخرى غريبة عنّي... جميلة... نقيّة... خفيفة كـــالهواء المعطّر... أنا جرّبت أن أمشي في درب الموت مرارا عديدة وجرّبت أن أعود إلى الحياة صباحا. عندما أستيقظ أحسّ أن عظامي تتفتّـــت وأن رأســـي تطـــرقه جبال من الحديد وأن أمعائي الفارغة ضـــيّقة... ضيّقة حتى أنها لا تكاد تتّسع لما أتنشّقه من هواء عطن... أتمـــنّى أن لا أقوم من موتتي حينها لكن واجباتي الرتيبة تمنعني من أن أغفو ثانية كي أعانق غيبوبتي.

أنـــا أحمل الموت في صدري منذ سنوات بعيدة وها أنا متأكّدة مـــن أنني أحمله الآن في دماغي رغم تأكيد أخصّائي الأشعّة على أنني ســـليمة من مرض "الزهايمر"، ورغم رغبتي الملحّة في أن أعرف سرّ حالات النسيان التي صارت تنتابني عند القيام بأدواري المعقّدة، والتي لـــولا حسن تصرّفي وارتجالي لكنت الحين بعيدة عن الخشبة. قال لي إنني أتعسّف على قدراتي وجسدي وإن ما يصيبني لا يعدو أن يكون إرهاقـــا، لكـــنني أتخيّل كل ليلة عندما أتمدّد على فراغي الخلايا الحيّة الباقـــية في مخي في مأتم تقمن سرادقا لأخواتهن اللاتي صرن متيبّسات

منذ حين... كم ترى عددهنّ... واحدة... مائة... ألفا... ملايين كثيرة... ربما يكون عددهن أكثر... أبكي... أبكي بحرقة على عقلي الذي ينسكب مني هدرا... أبكي عليّ كيف سأقضي يوم الغد... سأقوم باكرا... سآكل... سأعمل... سأرجع إلى الدار الباردة في آخر النهار وسأمارس الحبّ مع رجل لم يعد يحبّني، وفي الأثناء ستحتضر أشيائي الصغيرة ثم تزفر الروح رهقا وضجرا... كثيرا ما يراودني الأمل في أن ما قرأته في مجلّة علميّة قد يكون صحيحا... أقفز من فراشي مهما لسعني البرد... أجري نحو الثلاجة وأنكفئ على إناء عسل مصفّى أقذف به في أحشائي ومع كل جرعة يكبر إحساسي بأن خلاياي تتطهّر من الرجس الذي يداهمها وأنا يهدهدني الأمل... وأنا لا أدري ماذا أريد وأنا لا أعرف جدوى ما أقوم به إذا كنت دائما أخوض في العدم وأبحث عن ثناياه الجليلة.

أنا أعشق العدم وأنا أتطلّع إلى رؤية الأشياء المفرطة في صغرها والتي لا يصفعنا حجمها عندما نمرّ أمامها مزدهين بغفلتنا... نحن لا نرى تلك الأشياء إلاّ بقلوبنا الواجفة أو عبر أحاسيسنا النقيّة العميقة. لا تتحقّق صداقتنا بهذه الأشياء بواسطة مظهرها وشكلها، إنّما نحن نتآلف معها ونعطف عليها لصرخة تنبثق من اختفائها عن الأعين ذات مدى الرؤية القصير... أبحث عن أشياء بسيطة تناديني جدّتي وتشكو لي مرارة غربتها وضياعها في أتون الاستعراض والبهرج الزائف، وأنا أحبها مهما كانت تضمر لي الموت الزعاف.

كل الأشياء لا تعطيني غير رموزها وصورها التي أنقشها على مزاجي فهي تأتيني مجسّدة وربّما في ذلك يكمن سرّ حياتي التي أكون كاذبة عندما أقول إنني أرغب في سواه نمطا أعيشه مثقلة بالسكون وبرضائي عن كل شيء. لولا تلك الأرواح التي تحيط بي وتضفي على وجودي معنى مراوغا مختلفا يستدعي الدهشة فأظل أقتفي بكل

هــوس آثــاره لكانت حياتي بسيطة، قاحلة ولكان طعمها داعرا لا يمكنني أبدا أن أستسيغه.

* * *

أواصــل طــريقي... أمشي بمحاذاة الرصيف... كل المحلاّت الــتجارية على وشك الإغلاق... حارس المغارة التي يروق لي دائما الــتجوّل في أروقــتها المــتعدّدة واقف أمام باب المستودع استعدادا لإيصــاده... ذاك يعني أن وقت انتهاء العمل هناك قد حان لذلك لا أدخــل... لا شكّ أن الجرس في الداخل لا ينقطع عن الرنين إيذانا بضــرورة الإسراع بمغادرة المحلّ... العاملة على الآلة الحاسبة كانت مــنذ قلــيل تزفر ملء تبرّمها وها هي الآن تجري نحو دورة المياه... سوف تضع الأصابع الرفيعة الشفافة التي لا تنفكّ تنقر الأزرار برشاقة تحــت سيل الماء البارد كي تشعر براحة أكثر. هي لا تخفي فرحتها بانعــتاقها أخيرا من جلسة صارت مع مرّ الأيّام جرّاءها تشكو آلاما مــبرّحة على مستوى الظهر رغم شبابها المفعم تالقا وحيويّة. عيناها أيضا أضحتا تدمعان دائما لكثرة تمعّنها في الأرقام المسجلة على شاشة الحاســوب الــباهرة الضوء. "لولا نظرات الحرفاء المليئة تارة فرحة صــافية وتارة أخرى بؤسا قاتما والتي تذكّرني باستمرار بأن بداخلي روحــا زكيّة ترفرف لخلت أنني لا أعدو أن أكون آلة تعيسة كالتي تقــرفص مثل لعنة أمامي". سمعتها تقول ذلك بفتور وأسى لرفيقتها المقابلة لها في العمل أمس مساء.

في دورة المياه تقترب العاملة من المرآة وتتمعّن في بعض خطوط رقيقة بدأت تزحف على جبهتها العريضة قليلا والتي تحاول إخفاءها بــترك خصلات شعرها الأسود اللامع منسابة بفوضى ناعمة تضفي على قسماتها رقّة ملائكيّة. تدلك العاملة الخطوط الرفيعة برفق عساها

تختفي ثم تطمئن نفسها إلى أن الإعياء هو وحده المتسبّب في ظهورها. "سوف تختفي هذه الخطوط اللعينة فور استرخائي ووضع كمّادات منقوع النعنع على جبهتي وأسفل عيني، فإن لم يحدث ذلك أخصم من مصروفي وأشتري مرطّب بشرة يحتوي على عناصر مقاومة للتّجاعيد مهما غلا ثمنه وحتى وإن لم يتوفّر في السوق المحلية. سأوصي عليه صديقتي التي تعود صيفا من ديار الغربة. هذا المستحضر توفّره أشهر مصانع مواد التجميل في باريس كي تحمي عجائزها المتصابيات من شراسة عناء القبح الفاتك. ليس صعبا جدّا أن أحصل على هذا المستحضر... لن أترك القبح يغزو وجهي باكرا وينتصر عليّ. ليس هناك أدهى من إحساس امرأة تشعر أنها فريسة القبح الذي يجعل رجلا تحبّه يعزف عنها لذلك لا بد من أن أقاوم هذا القبح السافل مهما عظمت سطوته إذ ماذا سيبقى لي إن ضاع مني وجهي هذا؟" تقول العاملة محدثة نفسها بصوت لا تجعله خافتا جدّا. أعرف أنها تعشق رؤية وجهها الجميل في المرآة لأنها لا تتحرج من أن تفعل ذلك أحيانا أمام الزبائن الذين لا يحتجّون أبدا. هي لا يمكن أن تراها مرّة أمام آلتها غير متبرّجة. هي فرحة بفتنتها الصاخبة وأنوثتها المتوهّجة إلى درجة أنني أشفق عليها من أن تصبح في يوم ما هو دون شك قريب مهما بعد عجوزا شمطاء قبيحة الوجه المترهّل المملوء تجاعيد عميقة وأن تغمر وجنتيها المتورّدتين ويديها الرقيقتين بقع بنية داكنة بشعة.

ما أفجع أن نسير هكذا رويدا... رويدا نحو موتنا... الشيخوخة تأتي مكشّرة مع كل خطوة نسيرها إلى الأمام أو إلى الوراء... عن وعي منّا أو عن غيره. ونحن لا نتوجّه إلاّ نحو النهاية المحتومة ولا شيء يخلّد اللحظة التي نحياها. حفيف الرياح يحكي كلّنا الناهش كل شيء حولي يبكي بلوعة فاجرة ونشوة حزينة

تملؤني لأنني لست متأكّدة مما إذا كنت أحيا الحلم أو اليقظة، إذ أنه يجب عليّ أن أدحض مجرّد ورود فكرة أن يضيع مني كثيرون كنت أتصوّر الفناء لا يمكن أن يطأ أعتابهم بكل هذه الفجاءة البارقة.

الانفصال... الغربة... الفقد... الرعب... السأم... الانكسار... الفشل... العجز... الخيبة... النهاية... توشي صورنا المفردات المسرفة في التوحّش... يكلّل أيامنا المفجوعة الفناء المتغطرس... الموت وراءنا يجري كبراق فقدت دلالاته بهجة البرهان... أمامنا ينتصب الموت متحفّزا للانقضاض على عيوننا كي يطفئها وألسنتنا كي يجتثها وقلوبنا كي يخرسها عن النبض... بجانبنا يربض الموت غامزا... هامزا... لامزا... متهكّما بكل شماتة... حولنا يحوم الموت ولا تبقى غير الذاكرة المشحونة بالكلمات المارقة... يستمرّ الراوي الثاقب الرؤية... تحيا كلماته لتخترق النسيان مهما بلغ بالزمن العدم... الكلمة ليست سليلة الشفتين فقط... الكلمة فعل جدّتي يروي الحياة بنبضها وقصورها... الكلمة رفض صامتا أكان أو مولولا.. الكلمة حركة تنفي العجز المزري... الكلمة سير متواصل في كل الاتّجاهات لا يطأطئ للعدم... قبل البدء كانت الكلمة... في الوسط حتما ليس هناك مجال فسيح لغير الكلمة، وبعد النهاية لا بد أن تصرخ وتنتقم لنفسها الكلمة مهما كانت مجهضة ومهما كان الصمت مستطيرا ومهما كان الخواء منتشرا... وأنا أحلم دائما بالحلم الباذخ الوهاب... وأنا أتوق دائما إلى أن يكون لي منفى موعود... وأنا لا أنفك أنتظر بهرة ضوء الفرحة العذراء الغامرة... لكن...

الحلم هو الوجه الآخر لواقع مأزوم ينخرنا... الحلم قناع يستر الوجه المغمور ندوبا عميقة وبثورا متقرّحة تنز قيحا أخضر ودما

قانـــيا لا يـــنفكّ يـــتفجّر... الحلم ورم داهية يتفشّى في أرواحنا... يمضـــغها على مهل... الحلم بالونة بلاستيكية شاسعة في عيون طفل سرعان ما تنتحر نشوته البريئة إذا فرقعتها وخزة عابرة... الحلم وهم تستجير برحابه الماحلة نفوسنا الفارّة إلى سذاجتها المخزية.

في أوقـــات كـــثيرة يتنافذ الحلم مع الواقع فيصيران صديقين لدوديـــن يحتمي كل منهما بالآخر لتحقيق شيء من التوازن يغمر الأعمـــاق الـــتي توشك أن تتفجّر أشلاء مبعثرة... عندما يضحو الواقـــع أمرّ مما نتصوّر أنّنا نتحمّله عندها نتوجّه نحو حضن الحلم القـــاحل... فليكن حلما هذه الليلة نهمس لأنفسنا المثخنة جراحا دامـــية... لا... كابوسا عنيفا مزمجرا طبعا... سينجلي غدا... أو ربما بعد غد... قد ينجلي بعد آلاف السنين وقد لا ينجلي أبدا... المهمّ هو أن نوهم أنفسنا العائشة وهن اليقظة الهاربة بأنّنا سنفتح أعينـــنا حتما على الخلاص المريح... الخلاص الموغل في النقاء من الوجع... لكنّنا نظل أسيري ذلك الوهم يسري في عروقنا فتتعوّد عليه وتعتاد أنفسنا على انتظار الأمر لتحمّله... ننظر إلى أجسادنا فنلفـــيها شاحبة متيبّسة... نمد أيدينا إلى أشيائنا القريبة أو البعيدة لكنّنا لا نطولها مهما بلغ جهدنا أوجه لأن الشلل المفجع يملؤنا... الجســـم خشبة مهملة تمرح فيها العثة... الجسم لا قدرة له على اســـترجاع الإحساس بما هو بصدد الانصهار في بوتقته من وجع الفقـــد والانفصـــال... نهرب من القهر الذي لا يحد إلى الإغماء والعيون تبحلق وتلتمع بوميض غريب يحكي السكون المحرق... لم يعـــد هـــناك مجال لحضن فرحة أو أمل... حبّ جارف أعمى أو كراهـــية... قبح أو جمال... كل الفضاءات شاسعة في نفس الآن الـــذي تصبح فيه منعدمة لا تتّسع حتى لاحتواء ذرّات الإحساس الهائم المبعثر.

تعوّدنـــا عشرة الكوابيس الصبر على الخرس عندما ترأف بحالنا وتحمينا من الوعي بيقظة نحن لا نقدر على الذود عنها إذ هي لا تبالي بفجيعتـــنا... نحن لا نخسر الآخرين فقط عندما يعزمون على الرحيل ويفارقوننا... نحن نفقد نفوسنا التي يحملونها شتاتا معهم.. الذكريات التي يعبّئ بها جرابه الضخم المهترئ لهول ما حمل الموت تظل تحيا معنا هـــباء لا يمكن الإمساك به ونحن في كل يوم تضيع منّا أجزاء حميمة كـــثيرة لا نستطيع الحفاظ عليها، رغم أنها كانت ترتع قبل قليل في دواخلنا لكنها تختفي بمحض غفلة دون رجعة.

أرى الـــزمن واقفـــا الآن يتأمّل ما حوله... ألحظه يرمقني بعين حمراء دامية كبيرة مرعبة أنهكها الوسن لكنها تستعد للإنقضاض عليّ كـــي تمـــلأ عـــروقها الناشفة العطشى بدمي الذي لا تتفطّن إلى أنه متســـمّم لفرط تعفّن جروحي... أرى الزمن منتصبا ينظر إلي شزرا لأنـــني أجوس دون وجل ثخومة الممنوعة الشائكة... ألمحه يترصّدني ويســـتعد لمباغـــتتي حين يعتريني سهو عن إضماره المغرض... لكنني أتحـــدى إن كان بيده أن يوقف أنفاسي الآن فأنا متأكّدة من أنه ما زال عليّ أن أسير... أسير قليلا ممتدّا في الطول إلى أن تتفتّت قدماي ويملأ الشوك المتوحّش ما بقي سليما من جسدي الثقيل الذي أضحى جثة جافّة متيبّسة في هذه الأيّام القاحلة.

أمـــور كثيرة لا يمكن حصرها تدعو إلى الأسى والبكاء في هذا الزمن المعتل، لكن شيئا ما خاصّا له طعم غريب حامض فاضح يرتفع تـــارة في فضـــاء هـــذه المدينة ويهبط أخرى إلى أسفلها يدعو إلى النحيب... أسمع روحي الكريبة تنشج لكن ما من مواس منقذ يحميها من داهية التحلّل.

* * *

الأضـــواء تخفـــت تدريجيّا داخل المغازة والعاملة التي أشتاق إلى رؤيتها لم تخرج بعد... أرغب في أن أراها الليلة فقط... لعلّها تتذكّر أنـــني وقفـــت مـــرّات كـــثيرة أعرض بلا مبالاة ما اشتريت أمامها فتضحك لي... ضحكة واحدة منها تكفيني الليلة كي أنضو عني ولو قلـــيلا من همي هذا الذي يثقل على أنفاسي... العاملة جميلة ورقيقة وأنـــت لا تستطيع إلاّ أن تخبّئها بحنان سنونوّة في قلبك رغم أنّك لا تقـــدر أن تظفـــر بعلامات ذكاء خارق توشي وجهها الصبوح... ضحكتها وحدها ومن غير أي دافع آخر تدعو بإصرار إلى أن تحبها.

الأضـــواء صـــارت نـــــزرة داخل المغازة والحرفاء يخرجون مـــتزاحمين مـــن الـــباب البلّوري الذي لا يعبأ بركلاتهم ولا يتّسع لاندفـــاعهم. أتظاهر بالتفرّج على أحذية رخيصة في واجهة زجاجية محاذيـــة تلتمع بداخلها فوانيس متعدّدة الألوان. "عيد سعيد" مكتوبة بخـــطّ عـــربي كوفي أنيق تزأر أمامي. تحتها كتبت نفس العبارة بلغة فولـــتير «Heureuse Fête» رغم أنه كان قد مضى على آخر أعياد هـــذه الســـنة أكثر من نصف سنة... هل التهمنا النسيان في جوفه العمـــيق أم هـــل أن كـــل أيامنا أضحت أعيادا صاهلة بقدرة قادر والوحـــيدة التي لا تفقه ذلك هي أنا؟ أشيح ببصري عن الواجهة... انظر إلى الأسفل... أرى سيلا جارفا من الأرجل... أتمعّن في الأرجل الســـافرة... بعضها عاجي مصقول وبعضها الآخر يغطّيه زغب يزيد مـــن ألقه ضوء الشارع الأبيض الباهر في مدخل المغازة... أتلهّى بعد الأرجل كي أقدّر عدد الحرفاء الذين كانوا يتبضّعون في الداخل... لا أحســـب الرؤوس رغم أن ذلك أيسر لأنني لا أريد أن أصدم بالعيون الكامدة... أطلق مرّة أخرى العنان لمخيّلتي التي تأبى أن تخرس عندما أرفع رأسي من جديد... إحداهن اشترت حفاظات لطفلتها الرضيعة وأحمر شفاه فاقع اللون ليس ذا علامة مميّزة. هو لا يقل قيمة عن أحمر

شـــفاه آخر مستورد تتباهى باستعماله زميلتها في الشغل، وتدّعي أنها اشـــترته بثمن باهظ رغم علم الجميع بأن صديقها هو الذي جلبه لها إثر سفرته الأخيرة مع أشياء أخرى جميلة تسلب العقل. لماذا نكذب عـــندما نكـــون على قناعة بأن ما نفعله ليس إثما يمكن أن يخجل منه المـــرء...؟ لماذا نخفي حقيقة عواطفنا وعلاقاتنا ونرمسها في الظلام إذ كنّا نعيشها بكل إرادتنا؟ سوف تكذب وتقول إن ذاك الأحمر الذي آقتنـــته غـــال هـــو أيضا و لم لا تفعل ذلك ما دام الجميع يتجمّلون بالبهـــتان؟ ... السـيد الآخـــر ذو الياقة العريضة المنشّأة والوجنتين الممتلئـــتين والـــذي يبدو أنه غبي قليلا وقانع كثيرا، أظن أنه اشترى ســـاعة يدويّة لأن ساعته الجميلة العتيقة قد تعطّبت منذ أيام بعد أن رمـــت بها إثر سورة غضب فادح حرمه المصون التي لم تكتف بذلك إذ هـــي عضّته مثل كلب مسعور وخمشت وجهه... هو وصل اليوم مـــتأخّرا إلى عمله فتعرّض إلى توبيخ رئيسه المباشر له. رغم أنه ليس من المتعوّدين على الإخلال بواجبهم إلاّ أنه رضخ و لم يحتجّ و لم يدافع عـــن نفسه..أنا متأكّدة من أنه طأطأ رأسه خجلا من احمرار وجهه ومـــن الـــنظر في عيني معاتبه وانكفأ على ملفّات منضّدة على كتبه يدرسها باهتمام وكأن شيئا لم يحدث... وكأن إهانة مجانيّة لم تلحق بشخصه المسكين الأخرس و لم تهدر كرامته... أمّا تلك الصبيّة اليافعة فقـــد اشترت شريطا مسجلا لأغاني مطرب شاب يعجبها وقارورة عطـــر ستهديها غدا لصديقها بمناسبة عيد ميلاده، كما اقتنت كتاب جيـــب ستقضـــي بـــه أوقات الفراغ إذ عطلة منتصف السنة على الأبواب.

أمـــلّ... أملّ... أقرف مما أنا بصدد فعله... ذاك شغل من لا شـــغل مجديـــا له... مـــاذا يهمّني من أمر الآخرين وما قد يحصل في أيـــامهم...؟ ماذا سأجني من مواصلة التخمين فيما يخصّهم غير وجع

رأسي الذي بدأ يتفاقم. الريح تهبّ ناعمة فيلسعني البرد لأن قميصي وتنّورتي مبتلاّن جرّاء مشيي تحت المطر وعزوفي عن الاحتماء بالواقيات... كنت منذ قليل أحسّني تلك الطفلة البعيدة المنتهزة فرصة انشغال أمّها كي تخوض في برك الماء المزقزقة فقاعاتها الهوائيّة أو تنتصب فاردة طولها تحت المزاريب كلّما هطل المطر فتنال إثر ذلك أمرّ العقاب الذي يهوّن الإحساس بوجعه أنها نفّذت ما تبادر إلى ذهنها وما خطر على قلبها فعله.

إلى الآن ما زلت تلك الطفلة البعيدة التي تعشق أن يغمرها الماء من أعلى راسها حتى أطراف أصابع قدميها رغم خوفها من الاختناق... إلى الآن لم تبرحني طفلة تعشق اللعب بالماء الذي تهبه كل أشكال بديعة تصنعها عيناها وتنساب له يداها اللتان حرمتاها متعة أن تكونا مرنتين وأن تمنحاها فرصة أن تشكّل وتنحت وفقا لرؤاها الجامحة وهواها المستعر... إلى الحين ما زلت أحتفظ في أعماقي بطفلة تأنف من حمل مطريّة تغريها نقوشها وألوانها الزاهية لكنها تعزف عنها مهما كان الطقس ينبئ بالطوفان العارم الذي لا عاصم منه غير الماء... إلى الآن يستعصي عليّ اكتشاف سرّ عشقي للمطر... ألأنه يطهّرنا وينقّينا من الأدران؟ أم لأنه يهبنا شكله أم لأنّنا نهبه شكلنا ناصعا شفّافا إذا ما غمرناه واجتحنا عليه فضاءه؟ ألأنه منه قد انبعث كل شيء حي أم لأنه يخفي في أعماقه حكاية البدء البعيدة وأسطورة الحنين العويص على الروح نسيانها أو لأنني إذا ما ابتللت وابتلعني في مجاله اللامتناهي الماء المندفع أحسّني قد عدت مرّة أخرى إلى عتمة الرحم حيث لا شيء... لا شيء... لا شيء غير الماء الغامر والظلام المطبق والانتظار... انتظار الآتي الذي يبدو نائيا... قصيّا في خضمّ السواد المطبق الذي يمتصّ الخوف الخسيس والأحاسيس الجوفاء... لا أدري... لا أعرف... ما زلت لا أفقه كنه

شعوري بأنني أختفي بين قطرات الماء فأتمازج مع ذراته المكينة. تحت المطـــر أحسّني لا مرئيّة... أثيريّة. خفيفة... خفيفة... أجول بجناحين مـــن ضوء... وأتفرّج على العالم بمن فيه من عل... من عل سامق لا يطال.

ســـيل المـــاء الجارف... النار الصاهدة... رائحة التراب الندي المختلطة برائحة الخشب المبتل والأعشاب وروث البقر... رائحة خبز التنور العابقة... رائحة أزهار الليالي السود المقترفة الاختباء في نخاع الـــبرد القارس... رائحة الدموع المالحة تقتفي خطوات الفرح المتمنّع الهـــارب... رائحـــة دخان الحرائق المشتعلة... رائحة البيض المتعفّن الـــنافذة والـــدم المتخثر والجماجم المتحللة التي تنادي الموت بأقصى صوتها الناعق... تلاحقني جميعها كل بطريقة مختلفة... على حدة تفد عـــليّ تارة... وتأتيني أحيانا أخرى متوحّدة... تتّفق عليّ كلّها كي تمـــزّقني شتاتا... أقتنص جميل اللحظات المزركشة المستحيلة التي تهل عليّ في وحدتي لماما عندما يبلغ الغياب أوجه وتغني العزلة كي تهرب مخلّفـــة الفجيعة وتلاحقني الروائح المرعب وجهها فتسد أمامي منافذ الخلاص... تجري ورائي بكل سرعتها... لا أكاد أتخلص من الواحدة إلاّ وتمســـك دون رأفة بي الأخرى... أشمّها في كفي يديّ... أشمّها عـــندما يـــتحدث المحـــيطون بي... أشمّها حتى على وجنتي صبي تنام الملائكـــة هانئة في عينيه البريئتين... كل العطور النافذة لا يمكنها أن تهزم تلك الروائح الهائمة التي ترافقني أياما لا تقصر إلى أن أقرف من وجودي ويملأ روحي الكسيرة الوهن... أعتاد القرف... أتعوّد على الغثيان الذي يعصر دون رأفة الأحشاء المجروحة... يغمر العالم سائل لـــزج أصـــفر... مخضرّ... مسود حالك رائحته خانقة... أغرق في أمواجه العاتية المتلاطمة... تستعصي عليّ مقاومة التيار... أغرق... أغرق... انجرف إلى القاع... آآآي... آ... اااأي العالم مظلم بشكل

رهيب... مظلم إلى درجة فادحة... دامس حتى الأعماق... لماذا... لمـــاذا أنا... لماذا أنا فقط... لماذا أنا وحدي تنام على ظلي المسفوح الأشباح الشرسة المتجهّمة؟

أشـــياؤنا الجميلة الخفية نحملها عذبة في أعماقنا السحيقة حتى وإن كـــنّا لا نـــراها... نحمـــيها بكل ما أوتينا من رغبة في المواصلة فتصـــبح عـــادة تسري بين النبض والنبض، كذلك نفعل مع أشيائنا الكثيرة التي تتّفق على همشنا وتعذيبنا رغم أنّنا نعرف سوء نيّتها. نحن إن أقفـــرنا مـــن أشيائنا تلك المتناقضة لا نضحي غير مزق وعدم... نصـــير الفـــراغ يعوي فيه الخراب... أراهم يملأ عليهم البذخ عالمهم بكـــل الأشياء التي تكرّر نفسها ببلادة مفرطة... أراهم واقفين حيث حقّقـــوا كـــل احتياجاتهم المعلنة والمنطوية على اختفائها المشين عن الأنظـــار المترصّدة... أراهم جامدين لا تحرّك قلوبهم الساكنة أحلام بسيطة تراود الباحثين عن نـــزر من سعادة مارقة وذاك ترفهم المفلس لا يحفـــل بعرائي ولا يبعث في أدنى رغبة في الركض وراءه، وهذه أنا الحاضنة جنوني لا يغريني فرحهم الذي لا يحتفي بي... ما دامت كل الأشـــياء صنوا للخواء ما جدوى أن أوهم نفسي بالامتلاء الذي لا ســـبيل إليه؟ لماذا لا ألتحف عرائي وأعيش حقيقة أنني واعية بالعدم الـــذي يطوّقـــني؟ فليكن الفراغ ولأكن أنا التي لا ترضى أن يعمّرها الزيف المريب.

في الأيّـــام الأخيرة ومنذ مدّة غير قصيرة جدّا صرت آتي أعمالا مجـــنونة لا تعطـــيني أسرارها. إحساس عميق بأنني سأطير ثم أنفجر يرعبني... إحساس فظيع بالخفّة التي تتحوّل فجأة إلى ثقل عارم خانق يدمّـــرني حـــتى أنني أسعى جاهدة إلى أن أستمرّ ثابتة بجسدي على الأرض... ألتصـــق بها بتشنّج... كيف...؟ أقبل على الأكل بصفة غريـــبة... أبحث عنه في كل مكان أجدني فيه... ألهفت على الأكل

بشـــكل لا يفضح قرفي الذي يملؤني. لا أحد اكتشف مرّة أنني فور امـــتلائي الوجيع أجري صوب دورة المياه كي أتقيّأ كل العفن الذي يخـــنقني... أقـــذف كل ما حواه جوفي القذر... أحيانا أحاول لفظ أحشائي نفسها... أرغب في أن أعود فارغة... خاوية حتى لو طرت ثم هويت وتهشّمت... أريد أن أتطهّر من كل شيء أحسه قد أصبح يعـــيقني عـــن استنشـــاق الهواء النقي.. أسعى بإصرار إلى أن أتطهّر منّي... إلاّ أن طريق الدمار والثبور يظل أمامي ممتدّا... إلاّ أن سبيل التهشّم لا ينفكّ يناديني.

* * *

حـــارس المغازة ما زال واقفا أمام باب المستودع. هو ابتسم لي عـــندما مررت بجانبه. حارس المغازة يبدو في نهاية العقد الخامس من عمره. خمّنت ذلك لأنه يشبه أبي قبل أن يداهمه الموت في تلك الليلة الرهيـــبة الـــتي ظللـــت أنظرها مرتعبة أكثر من نصف عام بعد أن توجّست خيفة إذ رأيت العثة الملعونة تدبّ في عروق أبي الذي كان ليـــثا هـــزم كل العلاّت وظل واقفا... منتصبا... شامخا. تمعّنت في ملامـــح حارس المغازة عندما آقتربت منه. تنشّقت الهواء. كان نقيّا يشـــرح الصدر صفاؤه من الشوائب. لم أشتمّ رائحة البيض الفاسد والســـمك المـــتعفّن عندما أضحيت حذوه. فرحت لأنني تيقّنت أن قـــابض الروح ما زال بعيدا عنه. لم أفترض أن هذا الرجل تعيس في حياته أو أنه تشاجر مع رفيقة عمره. لا شكّ أنه سعيد لأن الابتسامة الجلـــيلة تكلّل وجهه الذي عبثت بتقاسيمه الأيام. لا يعقل أيضا أن أتصـــوّر أن هـــذا الرجل أرمل فقد دربه الطيبة وأهمله أبناؤه الـــناكرون بعد أن تبوّؤوا أعلى المناصب... لا عندها وجهه سيكون حـــتما كالحا متجهّما... حارس المغازة قسماته تنضح بهجة وإشراقا

وأبـــناؤه غـــير جاحدين البتّة ورفيقته لا تبخل عليه بالحبّ والفرحة الـــبكر... أحببت هذا الرجل المتلألئ دون سابق معرفة لي به... هو بســـيط مثلك... مثلك تماما بابا. وددت لو أنني أقضي بعض الوقت في محادثته... أقضي حتى الليلة بطمّها وطميمها ولا أسأم حديثه لأنني أفـــتقدك بابا، ولأن لدي الكثير مما أريد قوله لك رغم أنني أكرهك حد الحقد أحيانا... أكبت رغبتي مكرهة في الحديث إليه... أقف... كـــثير من رغباتنا التي تقرّبنا من الله ومن إنسانيتنا تنحر عل أعتاب بدايـــتها... نخنقها وأعيننا مغمضة حسرة على الألم الناهش فتموت وتـــذوي كمدا لأنّنا نخجل من إتيانها أمام الاخرين مهما كان هدفنا من تحقيقها ساميا... نحن نخاف من رد فعل المحيطين بنا رغم أنّنا نراه فظّا سمجا لا يراعي توقنا إلى الانعتاق من كل الأصفاد.

"مســـاء الخير بـــا... عمّي" قلت لحارس المغازة. يخرس حرفان عـــلى لساني. باء مفتوحة دائما لتلتهم الفراغ الفاحش ثم تمده وألف ممدودة ساكنة مثل شبح المقابر الطويل... كيف يمكن أن أجرؤ على أن أقـــول إنني أكرهك صراحة بابا؟ ألأنّك كثيرا ما خذلتني؟ ألانّك أول مـــن لقّـــنني لغة الخوف والرعب والغربة بابا... ألأنّك أوّل من نـــبّهني إلى أن الأنثى جاءت من الضلع الأعوج لأبي البشر رغم أنّك فيما بعد لم تفرّق في معاملتك بين بناتك وبين الذكور؟ هل أقول في هذه اللحظة أحبّك ملء روحي وتصدّقني... يجب أن تصدّقني بابا... حلـــوة كلمة بابا على طرف لساني وان تحوّلت بسرعة إلى جبل ملح ثقيل يلسع فمي ويدميه...

يطفـــئ رد حارس المغازة حرقتي "مساء الخير يا آبنتي". ابنة من أنـــا؟ لا أدري بالضبط... لا... لا... أنا أدري. أنا ابنة الضياع في هـــذا الزمن المخروم... أنا نطفة الوحشة العنكبوت تنسج خيوطها الواهـــية المتعجرفة حول روحي الواهنة في الظلام الدامس... أنا ابنة

المـــوت الورم في ثنايا الذاكرة المنتهكة... أنا سليلة النسيان يسير في رحابه المدقعة الوافدون من مجرّات اللعنة الراسخة... أنا ابنتك الضالة بابـــا والـــتي تظل ابنتك الحبيبة مهما بلغ بها السقوط ومهما كانت الهاويـــة عميقة... لا ضير أيضا في أن أكون ابنة حارس المغازة الذي يشـــبهك ولـــو لدقائق معدودة. رقيقة هي كلمة ابنتي ترشح حنانا وأمانا وحماية... صافية هي كلمة ابنتي ترفعك من بؤرة العذاب الفحّ وتمنحك جناحين من نور لا يهيضان.

قـــل "يـــا ابنتي" يا سائل كرم الله في هذه الشوارع المقفرة من القلـــوب الصاغية وأهبك كل ما زاد على ثمن تذكرة القطار وأجرة التاكســـي في حقيبتي... على فكرة لا يذهب بك العرض بعيدا لأنني لســـت مترفة... أنا مفلسة غالبا وحقيبتي لا تحوي على الكثير لكنني اللـــيلة يمكـــن أن أهبك ما قد يدخل على قلبك شيئا ولو بسيطا من الفـــرحة. لا تتصوّر أيضا أنني بطيبتي المدّعاة أريد أن أحجز لي مكانا في جنّة الخلد... أنا فقط أريدك أن تفرح... تفرح قليلا فقط... ولو ســـيدي... يجب أن نسرق من هذا الزمن الكالح نقطة ضوء تشعّ في رحابها فرحة واهية.

قـــولي يـــا "ابنتي" أنت أيضا يا زائرة الليل، تبيعين روحك شتاتا فيـــتمطّط في فضـــائك العار متشفّيا... متباهيا تجلّله خطاياهم المتوارية خلف ستر الأبّهة تلجم بوحشية الألسنة المتمرّدة. قولي يا "ابنتي" فأبكي مـــلء لوعتي وتبكين... تبكين إلى أن تعطف الملائكة المسجلة حسناتك وســـيّئاتنا وتنـــزل لتنقّيك كل ليلة إثر رحلتك الموعودة للعابرين الهمّج الذين يطؤون روحك المنتهكة بعداء صارخ وقسوة باذخة لا ترتوي... اضـــحكي يا سيّدة الفرحة التائهة وإن بلغ حزنك الذروة فكثيرون منّا يضـــحكون عـــن طيب نيّة وخاطر... وهم أيضا يضحكون لأنهم ربما لشدّة سماحتهم وهبهم الله نعمة أن يكونوا سعداء لا يطرق الحزن أبوابهم

إلاّ لماما، مثل حارس المغازة الذي يقول لي "يا ابنتي" وهو يضحك... لا أتحدث إلى حارس المغازة وأواصل الطريق الممتد المحفوف بالمنع وبالشهوة المهدرة. أواصل طريقي رغم أن حارس المغازة كان يمكن أن يهبني سعادة أن يدحر يتمي ولو لفترة وجيزة.

في السابق كنت أقدم على تنفيذ أي أمر يقرّ عليه عزمي مهما كانت عواقبه وخيمة لأنني أرفض أن أفرّط في أن أعيش أي لحظة أحسّها استثنائيّة. أعيش لحظتي تلك برمّتها فيهزّني نزقها المتمرّد مهما كان طفوليّا بريئا وتزقزق بأعماقي فرحتها الآبقة... أحيا حزنها وأتحمّل كل ما يصيبني جرّاها إلاّ أنني أبدا لا أندم ولا أنفكّ أردّد أنني كائن يستحق الحياة. اللحظة الجامحة ورد الفعل التلقائي القافز من القلب فجأة والذي لا يسطره تفكير عميق متروّ وتخطيط هما فقط اللذان يوقفان الزمن على حين غفلة كي نرى كل شيء عاريا من جميع الأقنعة وهما اللذان يصهران في بوتقتهما الحياة ويجعلانها مضيئة تسير على هديها الأحاسيس المتحرّرة، المتحفّزة المفعمة بهجة وصفاء... اليوم ماتت في أجمل الرغبات... الآن أحسّني مشلولة... مسلوبة... عقيمة تولول بين جنباتي الرياح المزلزلة التي لا تجلب قطرا.

أتفتّت تحت وطأة عجزي الذي صار ينهشني... كل الذي يحيط بي لا يشجّع على الحياة... كل ما هو ملك قبضتي الخاوية الآن يحث فقط على البكاء... بكاء ذاتي المهدورة التي ضاعت مني على أرصفة زمن لا يتقن غير طمس إرادتي وإثوائها في متاهات النسيان كي يجعلها طيفا من رماد ودخان... أواصل طريقي الطويل... أمشي... أمشي على غير هدى تاركة الحارس ساخرا من أعوامه الستين التي يقف رغما عنها صامدا متحفّزا لمقارعة الفناء... راسما على شفتيه تلك الضحكة الرقراقة التي لا يمكن أن تنسى.

* * *

حزم الضوء الباهتة تجعل ظلي لمبعثر طويلا... طويلا... طويلا جـــدا إلى درجة أنه يمتد من الأرض كي ينكسر على الحائط المقابل وينتشـــر عليه... في السابق كنت أخاف من ظلّي... الجميع يقولون إن الظـــل إذا كان طويلا جدّا فذاك يعني أن تلك الرقعة من الأرض الـــتي تمشي عليها والمرتسم عليها ظلّك كان قد سال عليها دم بريء وذلك الظل لا يعدو أن يكون روحا هائمة ولو منذ الأزل تبحث عن هادرها كي تقتصّ لعذابها الغشيم... الآن ما عدت أخاف حتى وإن كانـــت تلك المعتقدات التي يحاول العلم أن يبرهن على أنها سخيفة صحيحة لا يشوبها أي تخييل. فلتكن أرواحا فعلا هذه المسجّاة على الأرض والـــتي تصير كلّها عيونا مبحلقة باحثة منقّبة تقتنص لحظات الرعب الهادر تبثه ذكرى ذابحة في قلب النسيان. هم يقولون أيضا إن الـــروح تســـير في اتّجاه واحد لا تستطيع أن تحيد عنه مهما كلّفها الجهد ومهما كان توقها إلى الانتقام شرسا لذلك فأنا سأقطع الطريق وأمشـــي على الرصيف المقابل حتى أكفي هذه الروح الجليلة التائهة عـــناء ملاحقتي. الليلة أتذكّر كل شيء... الليلة أنسف غلالة سميكة طالمـــا أســـدلتها عســـفا على أشباح أنوء بحملهم في أحشائي غيابا وحضـــورا... الليلة تستدعيني حياة أخرى بعيدة من حيواتي الكثيرة التي لا تنفكّ تسلبني منّي... لا أدري لماذا نمنح للأشياء جميعها الحياة عندما نكون أطفالا ثم يوما فيوما تكسو ذاكرتنا التي أضحت عجفاء طـــبقة سميكة من غبار نحاسي لا فكاك منه... أتمعّن في جليز الطريق الذي أخفى الضوء الباهت قذارته. الطفلة كانت تردّد دائما حتى في لاوعـــيها "عندما تداس الخطوط الأب يموت". تتفادى الطفلة المشي على خطّ واحد للجليزات التي لم تكن في ذلك الزمن الضبابي الجميل الملـــتمع تحت أطياف قوس قزح تغطي بترف متشابه غبي قذر كما الآن كافّـــة الأرصـــفة في الشـــارع. تضـــع كل واحدة من قدميها

الصـــغيرتين على أحد قطري الجليزتين المتباعدتين... بأمّ عيني أراها تـــنطّ الآن برشـــاقة بريئة لا يمكن أن يرى إلى سحرها البدائي غير الهـــارب باكـــرا من سلّه الفاتك موديلياني أو الراحل منذ أيام قليلة الوديـــع بيكار طفل التسعين الخجلة، أو قد يراها فنّان نسيته الأضواء لشدّة حساسيّته فانكفأ على خيبته في هذا الزمن البخيل يجترّها بحسرة في أحـــد أركان مرسمه البارد الصقيع. الساقان السمراوان الرفيعتان تتنقّلان بدقّة وحذر على الرصيف... الصغيرة تضحو راقصة باليه لا تعبأ بغير خوفها تنفثه جمالا بكرا صافيا متلالئا تكتنفه صرخة رافضة متوســلة. لا يجـــب أن يموت الأب بسبب خطوط ترى إلى الصغيرة بعـــيون يقظة... ترمقها وتبحث عن غفلتها المنتظرة على لظى كي يفـــتك دون رحمة الأب وربّما تلحق به كمدا الأمّ الرؤوف... لماذا نظـــل نعيش أبدا وجع رعب أن يرحل على غرّة الأبوان؟ لماذا نظل حتى بعدما تسير بنا أشواطا طويلة في دروبها الكأداء السنون المتربّصة مرتعـــبين مـــن فكرة اليتم الفادح الذي يجعل الذل والخزي يرتعان بشـــماتة في الروح الكسير؟ كيف يصبح اليتم جريمة فاسقة تلاحق المـــنكوب وتســـمه بالعار الذي لا مناص منه؟ تعدّدت أشكال اليتم المريـــب في هذه الأيّام، والدهر صار دون رأفة بالنفوس الطفلة البريئة يغيّـــب الآباء والأمّهات الذين اغتالهم غدر الانكسار. كم جميل لو بقيـــنا صغارا أبدا... أتلظّى شوقا إلى وجوههم المشرقة تجلوا الهمّ عن القلب الذي أنهكه القهر... أحن الليلة إلى أن أطرق أبوابهم العريضة واحـــدا... واحدا... أنادي رشيد فيخرج لي قافزا مثل أرنب بري أنهكه البحث عن جحره الذي تاه عنه طويلا ثم لحظه فجأة... أنادي رجـــاء فتتسلّل وجلة مرتجفة تكسو وجنتيها الناعمتين حمرة فاقعة لا تفارقهـــا وتلتمع في عينيها دائما دموع تهفو إلى الانهمار... أبوها لو يكتشف خروجها مع أطفال الحي تصير ليلتها ليلاء... رجاء لا تحفل

برياء البورجوازية الذي تضعها في رحابه عائلتها الغنيّة جدّا، ولا تعبأ بأبـــراج شامخة منيعة يريدها والدها أن تقبع داخلها مثل أميرة سجينة لكنها ترهب المواجهة التي لن تخرج منها بغير التوبيخ... أطرق أبواب صباح... وحوريّة... وسعاد وأطرق ببيان الجميع ونعدو صاخبين إلى الطرف الآخر من الحي المتحاضنة بيوته في أمان... نسعى هناك حيث حـــطّ الغجـــر الوافدون من وراء الشمس منذ أيام قليلة خيامهم... الغجر هم أبناء السماء... هم أبناء القمر والكواكب والمجرّات البعيدة التي مهما بلغ كرمها حده لا تعطينا معانيها العميقة... هكذا يتهيّأ لنا وهكذا نحكي دائما وهكذا أيضا يؤكّد الكبار العارفون أكثر منا... هـــم يحلّون على الأرض فقط ضيوفا لمدّة تحددها ضروراتهم فيملؤون الفضـــاء بـــرنين ودع قلائدهـــم الحامل البحر في جوفه وبصخبهم وبلهجـــتهم الغريـــبة إذا ما تحادثوا فيما بينهم ثم يعودون من حيث أتـــوا... يقفلون إلى المجهول... إلى الغيوم البنفسجيّة والنجوم البعيدة حـــاملين معهـــم رضّعهم الذين لا يفارقون ظهور نسائهم الفاتنات ومـــتاعهم البســـيط الـــذي لا تشدّه إلى أرض تزهو بوقع خطواتهم الخفيفة حيطان وأواس منيعة أو تحميه أبواب موصدة متينة... يعودون تاركين ورائهم الفضاء نهبا للسّكون وللوحشة الناعقة... نسعى نحو خـــيام الضيوف الأحبّة راكضين... نستمع إلى حذائهم الشجيّ... نســـترق إلى الداخل النظر من الفجوات المتعدّدة... تواجهنا العيون الملتمعة المحذّرة... ذاك العالم البديع ممنوع علينا ولوجه مهما تقنا إلى معانقـــته ومهما رشونا أندادنا من أبناء الضيوف المبجّلين المرتابين منّا دائمـــا مهما كان احتفاؤنا بهم كبيرا وتوددنا إليهم مغريا... دخان المواقد البدائيّة يخرج من الفتحات المنفرجة ويعلو ثعابين ذات رؤوس لا تحصـــى في السماء. رائحة الطعام المنتشرة في الفضاء تقول رجاء شهيّة... شهيّة إلى حد لا يمكن مقاومته... لماذا لا يعطوننا هم أيضا

ممـــا عـــندهم كما نفعل نحن كلّما خرجوا علينا يسألون بعد صلاة المغرب بإلحاح عجيب وإيمان بحق الأخذ: "يا كريم بمتاع الله... شيء بسيط لله". لماذا لا نتبادل جميعا أشياءنا ونعيش الحبّ والجمال بكل وجوههمـــا؟ لو يسمع إلى ما تهذي به رجاء عمي أحمد الجميل مثل نجـــوم سينما هوليود الذين ينطون بكل حرية على حائط دار الثقافة المبنـــيّة حديثا كل ليلة أحد عندما يأتي إلى حيّنا مكرّمين شخصان لا أخالهمـــا إلاّ وافدين من البعد العاشر، ببكرة عجيبة تمنح الحياة لجدار كلّمـــا لمسته رغبة في الشد على يدي روبير ميتشوم أو مارلين مونرو أو جـــذب أحد كمي قميص عبد الحليم حافظ اللذين عرفت أنهما ممزّقان لكثرة معاودة عرض الشريط، إلاّ وارتسم ظلي ضخما بشكل مبهـــت عـــلى الحـــائط الشاشة واصطدمت يدي بالحجارة الباردة وقرعت أذني الصيحات المرعدة والتهديدات المنذرة بالطرد والضرب فأجـــري لأنكمـــش مثل لا شيء في حضن أمي الخجلة من تصرّفي وأنشج بصمت خيبتي... لو يعرف عمي أحمد إلى ما تهذي به رجاء كـــان سيسلخ جلدها ويفقأ عينيها الجميلتين الحالمتين اللتين لا تريان إلى الحقيقة جيّدا ويتبرأ من عار عماها إلى ما بعد يوم يبعثون.

أضـــحك من رجاء وأشتهي أن أتحلّق أنا أيضا مع الغجر حول مائدتهم الزاخرة المغرية... أنا لست غنيّة مثل رجاء وأمنيتي مشروعة إذ لـــن يعاقـــبني من أجل خطورها على بالي أو اقترافها أب أو أمّ لم يعـــرف كلاهمـــا معـــنى للعوز لشدّة البذخ الذي عاشا فيه. أذهب ورفاقي إلى مكان غير بعيد. نتقاسم الأعمال بهدوء وبساطة لا يتنكّد صـــفوهما مـــا دامـــت فريدة ابنة الجيران الماكرة ما زالت غائبة عن الحـــيّ... نجمـــع الحطـــب والقشّ والأعشاب اليابسة من كل جهة ونجعـــلها أكواما متعدّدة ويلصّ رشيد من مطبخهم في غفلة عن أمّه أعـــواد الثقاب وشيئا من النفط كي نشعلها نارا رمضاء عالية تخطف

الأبصـــار. نفعـــل ذلك خاصة احتفالا بقدوم ليلة عاشوراء دون أن نـــدرك لمـــا نقوم به مغزى، لكن اللعبة تعجبنا فنكرّرها في ليالي كل المواســـم الدينـــية وحتى في غيرها... كنّا كلّما نحسّ بالسأم يراودنا نلتجئ إلى النار نشعلها لنصيح حولها ملء قوّتنا ونغني ونجري ونجري إلى أن يعـــود إلينا حبورنا وزهونا... الأولاد فقط هم الذين يقفزون فـــوق النيران المتعالية ويخترقون لهيبها بكل بسالة دون أن أرى واحدا منهم يصاب مرّة بأي أذى أمّا البنات فيكتفين بالتفرّج والتشجيع...

وفريدة هي الوحيدة التي تغامر دائما

وتقفز بكل رشاقة وتحد فوق ألسنة النار المتسامقة المتوهّجة... ليـــتها لم تكـــن تســـعى قدر جهدها بالنميمة والمكر كي تفرّق بين الأصدقاء المتحابين... ليتها لم تكن متعالية متجبرة حد الإرتعاب من فكـــرة مواجهـــتها، كنت أحببتها بكل جوارحي لأنها لاتخاف مثلي والأخريات... الليلة أنا سأحاول القفز أيضا... سأحاول تجاوز جبل اللهـــب وكومة الجمر دون أن أسقط في دائرتها... ولكن ألسنة النار ســـتعلّق بسروالي الجديد... فأبكي... وأبكي... ويواسيني أصدقائي فأنسى وعيد أمي بأنني سألبسه مرقعا أمام الجميع لأنني لا أرفق بقلّة ذات يدهـــا في هذه الأيّام الشحيحة... أواصل اللعبة متناسية... أتنبّه إلى أن عـــثمان غائب هذه الليلة... أبحث عنه بناظري تحت شجرة التوت العتيقة حيث يقعد متفرّجا دائما دون أن يأتي حركة قد تلفت انتباه الآخرين إليه... لا أحد يكلّف نفسه عناء التوجه بالحديث إلى عثمان... عثمان متاع مهمل لا يسأل أي كان فينا إن كان وجوده ضـــروريّا كي تكتمل اللوحة التي نصنع ألوانها وخطوطها، دون أن نعـــي أو إن هـــي لـــن ينقصها شيء البتّة إن هو غاب عن حيزها الشاسع.

يمزّق الندم والحزن أحشائي... عثمان لم يأت الليلة أيضا... لا شكّ أنه ما زال غاضبا منّي. لقد كدت أقتله البارحة... جاء دوري كي أكون معلّمة أطفال الحي وكان يجب أن أؤدي دوري كما ينبغي حتى لا ينتقص قدرتي أصدقائي... عثمان كان أردأ تلاميذي نتائجا... اندمجت في الدور وسألته برفق في البداية: "لماذا لا تقوم بواجباتك يا عثمان؟ لماذا أنت دائما مهمل؟" وعثمان صخرة صلدة لا تنطق. أردف وقد نفذ صبري: "ماذا تنوي أن تصبح عندما تغدو رجلا؟" وعثمان لا ينبس ببنت شفة وأنا أصيح في وجهه: "ماذا ستصبح عندما تكبر... شحّاذا يا غبيّ؟". قلت ذلك بكل ثقة وكأن الأغبياء فقط هم الذين يسقطون فرائس بين براثن الفقر... وكأن عثمان كان فعلا غبيّا. ينتفض عثمان... تنفرط عقدة لسانه وببساطة وبراءة توتّران الأعصاب يردّ: "لا لن أكون شحّاذا... سأصير أفوكاتو مثل سيدي عمر". ليته ما ذكر عمر ذاك. يصبح ريقي نارا تصهد حلقي. ينساب الحريق مثل أفعى إلى أمعائي ويضحو الألم غولا كاسرا ينهشني. يزمجر بداخلي الشر... لا يعبأ بهشاشة نفسي. تتحوّل اللعبة إلى حقيقة مرعبة لا تبالي بطفولتي وأنسى كل ما يحيط بي. لا أدري من أين تجيئني كل تلك الرغبة في التعذيب... لا أعرف كيف أصير كائنا مشحونا عنفا وتوقا إلى القتل... قتل كل الأشياء التي لا تعبأ بواقع متمرّد تهدر فيه إنسانيّتنا المسلوبة... كل ما أعرفه هو أنني أهرب... أهرب من الخوف الذي يطوّقني... لماذا نجعل أحلامنا كبيرة ما دام تحقيقها عصيّا على إمكانيّاتنا البئيسة؟ ما جدوى أن نحلم إذا كنّا نفقه منذ البداية أنّنا لن نقبض على غير حفنة حقيرة من غبار دخان خانق؟ ما هو مدى مشروعيّة أحلامنا المشحونة عهرا لا يطاق إذا نحن اصطدمنا منذ البداية بالعجز البشع يكلّل أجسادنا النابضة عقما وعوقا؟ وأهال على عثمان المنكمش

عـــلى نفســـه كطفـــل رضيع رغم أنه تجاوز الثانية عشرة من عمره الداعـــر... أضربه إلى أن أدمي يديه المشوّهتين وساقه الكسيحة وهو لا يـــنفك ينظر إلي وبريق عجيب يلتمع في عينيه الواسعتين الجميلتين اللـــتين تأبيان أن تذرفا دمعة واحدة تشفي غليلي... أتملاّه لحظة لا تقصـــر... لا شـــيء يضاهي جمال عيني عثمان الصافيتين الطافحتين حزنا نبيلا وغيظا مهينا... يرتجّ داخلي ويعتصرني الوجع الرهيب من جديـــد... أنكفئ عليه... أحضنه... أبكي... أبكي ملء لوعتي إلى أن ينفلت عثمان من حضني ويهرب عارجا بصمته المملوء وعيدا.

أرى فجـــأة عثمان يخرج من جدثه البعيد... أراه الآن يجيئني في هالـــة رقـــراقة من ضوء باهج... أراه يعدو نحوي وقد فارقه عرجه وصـــار وســـيما... ممتلـــئا تطفح سحنته إشراقا وبهاء... يدنو مني ويـــرجوني أن أرافقـــه... يضحك لي عثمان ويقسم أنه عذر سبب ســـورة غضبي في تلك المرّة لما ضربته ضربا مبرّحا. قال لي إنه عذر جـــنوني بعد أن تأكّد من أنني ورشيد ورجاء كنّا نرى الأشياء أعمق ممـــا يرى... هو طالما تملكه العجب من همسنا ونحن نتقافز غير بعيد عـــنه أثناء لعبنا وكان يتهمنا بأن لا شيء يروق لنا لأننا أشرار ولأن نفوســـنا مريضة ولأننا نكره الجمال الذي خلقه الله. الآن قال عثمان إنه سامحني خاصة بعد ما رأى بنفسه كيف أتوا بعمر بو زمّارة المحامي يوم أن مات في حادث مرور مروّع، ظل أهالي حيّنا والأحياء المجاورة يذكـــرونه مدّة طويلة. كانوا يقودونه بسلاسل من نار وكان يرتدي هلاهـــيل قـــذرة ممزقة مزرية. وكان يسير على الشوك وهو يذرف الدموع مهل انتنا. كان شعره الأسود اللامع دائما في السابق منتصبا مـــثل شوك القنفذ على رأسه وكان غرابان أسودان شرسان يتناوبان عـــلى الـــتهام مخّه يخرجان أجزاءه التي لا تنتهي تارة من فتحتي أنفه وأخرى من عينيه أو أذنيه أو قمّة رأسه وهو ينظر إليها فزعا مرتعبا.

كـــان يركب على ظهره حمار شره يأكل بسرعة عجيبة عشبا يابسا ينبت باستمرار على قفاه. والله يا صفوى لقد رأيته بأمّ عيني يتبرّز في ثـــيابه كما يفعل طفل صغير حتى أني رأفت لحال ذاك الذي كان لا يـــزور حيّنا إلاّ في الأعياد مصاحبا أبناءه الثلاثة وبنته عزّة التي طالما تمنيت في قرارتي أن تكون قرينتي لفرط ما كان يبهرني جمالها العذب، حـــتى أنـــني لم أشـــكّ يومـــا في أنها حبيبة العيد تأتي مثله بالفرحة وبالضـــحكة وبالحـــلم الكبير... من أجل عزّة كنت أحبّ عمر بو زمّارة وكل من وما يمتّ إليه بصلة... أحببتهم من أجل تلك العظمة الـــتي تضفي عليهم رهبة لا يمكن إنكارها... السيّارة الفارهة اللامعة الرّاسية بجانب قصره الفخم الشامخ... الملابس التي ليس لها مثيل في أناقتها وتناسق ألوانها... النظرات المتعالية المملوءة ازدراء واشمئزازا... المشية الواثقة التي تثقب الأرض وتزعج الجن الأرقط في مخابئه المكينة تحـــت الارض السابعة... كل تلك الثقة بالزمن... كل ذاك الأمان الذي يحيون في رحابه هانئين بعيدين عن العراء والبرد... عن الجوع والـــبطن الفـــارغ... عن الحزن والدموع الحارة مثل الجمر... عن العاهـــة وعن مصيبة العجز... عن خزي الخوف وذل الانكسار... كـــل تلـــك الأشياء التي تجعلهم بريئين من العذاب والحزن النّاهشين كانـــت تجعلني دائما لا أتمنّى إلاّ أن أكون شبيها بسيد نفسه عمر بو زمّارة.

أنا لم أقرف منه ولم أرث لحاله إلاّ عندما حضرت ساعة حسابه عـــلى الملإ وكان حينها ذليلا قميئا لا يرى إليه لشدة تقلّصه وكانت همـــه حقـــيرة وشنيعة إلى درجة أن الكثيرين رموه بحجر من سجّيل سحق رأسه وفقأ عينيه الأضيق من سمّ الإبرة، وجعل الدم يسيل من أنفـــه وأذنيه والأمرّ من ذلك أنه كان يرى الأرض تسيخ به قليلا إلى أن صار يعالج سكرات ذلّه في قعر جبّ مرعب لشدّة ظلمته وعمقه،

وهـــو إلى يومـــنا هذا ما يكاد يفتح عينيه حتى يعود لغلقهما خوفا وخزيا مما هو فيه.

أثناء حسابه رأيت ما لم أره سابقا يا صفوى. رأيت فيه ساعتها قبحا ظاهرا يجرح العين وآخر باطنا يصفع أعماق الروح. إلى جانب صـــغر نفسه وتزلّفه المذل إلى أعضاء المحكمة. اكتشفت أنه لم يكن قوياً كما يتبادر إلى أذهان الجميع وكما حدث أن تصوّرت. لم يكن جميلا كما كنت أراه. وجهه كان متنافر التقاسيم وفمه كان محفورا ذا أســـنان صفراء متكسّرة مذبّبة. نظراته كانت مراوغة مفترسة حتى وهـــو في أقصى لحظات ذلّه، بطنه كان ضخما بشكل ملفت وساقاه كانـــتا مقوّستين إلى درجة تبعث على الاشمئزاز والضحك، أمّا صوته وهـــو يســـتغيث طالـــبا العفو والرحمة فقد كان لا يختلف عن نقيق الضفادع... من أين كان يجيئه كل ذلك الجمال الذي أضفيته عليه؟

المـــال والســـلطة والجاه تمحو كل القبح الذي يمكن أن يكون صـــارخا في المرء.. أنت لا تقدر أن ترى إلى عينين رحبتين مثل سماء ترصـــعها نجوم زاهيات في ليل صاح... ولا يمكن أن يلفت انتباهك قوام رشيق منحوت يضاهي تماثيل الأساطير الإغريقية بهاء وروعة ولا يمكـــن أن تلفت نظرك ضحكة رقراقة ناعمة تدعوك بإلحاح إلى أن تحـــبها وتحضـــنها إذا كانت مرتسمة على وجه يعاشره الفقر والعوز والعاهـــة... الفقـــر يســـلبك نعمة أن يرى إليك بوضوح فأنت لا شـــيء... أنت كائن أجوف زائد عما هو مرغوب فيه في هذا العالم لأنـــه لا فائدة ترجى من ورائك ما دام قدرك سطّر أن تفد إلى الدنيا ملفوفا في قماط من البؤس... إنّما المال يا صفوى... المال... اسألي عـــنه حمّادي الناصر الذي كان الصديد المقرف يملأ عينيه الرمداوين والـــذي كانـــت الأرض تقـــتات بشـــراهة من لحم ساقيه الحافيين المدمـــاتين... اسأليه ماذا فعل معه المال بعد أن ضحك له القدر ذات

صـــدفة عجيـــبة لا يمكن أن تهب نفسها لغير ذوي النفوس الصغيرة فسرق من ولي نعمته الذي آواه بعد تشرّد وائتمنه على كل ما يملكه. ســـيده إذّاك المـــال على العالم وصار الجميع يتمسّحون على أعتاب رضـــائه عنهم لكنهم لا يخجلون من ذكر قولة شائعة في غيابه وبعيدا عن آذان الواشين

" الدراهم درهمتني وفي كل يوم دراهمي من حرامه تزيد. كانوا ينادونني يا ولد الكلبة... صاروا ينادونني: سيّد مجيد". المال يمكن أن يغـــذو في حضوره القبح جمالا مترنّما... المال يمكن أن يجعل القميء المـــنكور كـــبيرا... كـــبيرا لا يعـــوزه شرف مصطنع مركّب، ولا يستعصـــي علـــيه نبل ولا ينفره مقام يتبوّؤه في حضور قطيع مداهن يخاتلـــه ولايظهر له ما يضمر... بالمال أنت تستطيع أن تشتري كل شيء... كل شيء إلاّ نفسك كما أنك لايمكن أبدا أن تكفي نفسك خـــزي عـــذاب الـــذي لا يهمـــل حساب من عمل شرّا من أجل أوبواسطة المال العميم والسلطان مهما امتدّ.

يغريني عثمان بأن أرافقه إلى حيث يوجد رشيد، صباح، حوريّة، جودة عمرو، زهوة،سناء وآخرين أنا أتلظّى شوقا إلى رؤيتهم كي أقبّل أصابع أيديهم وأشمّ رائحتهم التي صارت تفر مني أحيانا لفرط غيابهم، وأسمـــع نبرات أصواتهم وأسألهم إن كانوا ما زالو يذكرون أنني وحيدة بدونهـــم، غريـــبة تملأ الوحشة عالمي وتفتّت روحي المنهكة... يوقظ عـــرض عثمان رغبة تعج بداخلي لكنني أتردّد قليلا... أتعلل بأن النفق الـــذي يجـــب عليّ أن أمرّ به كي ألاقيهم طويل غارق في الظلمة وأنا مـــنهكة وخائفة، كما أن الخندق الذي عليّ اجتيازه عميق تلتهب في قاعـــه نيران لا مفرّ لي من التحلل نهائيّا في ظرف دقائق إن حدث وأن وقعت فيها عقابا لي على كل ما أتيت من أعمال مشينة، ذكرت لكم بعضـــها وتعـــوزني الشجاعة كي أذكر بعضا آخر منها بالتفصيل في

حضـــرتكم. يقـــول لي عثمان إنه سيحملني إلى حيث يوجدون على جـــناح هفهاف من برق، لكنني أرفض رفضا قطعيّا في النهاية لأنه ما زالـــت لـــدي بعض الشؤون المهمّة في حياتي التي يجب عليّا قضاؤها، كـــأن أتمـــم أغنيات سبعا حزينة وعدت بها ذات ليلة ماطرة هي التي وهبـــتني خطوطها بينما أنا أتسكّع في شوارع مدينة الخيانات العظمى المسجّاة أمامي الآن. تتمنّع عليّ هذه الأغنيات لأنها تدرك فرط معزّتها عـــلى قلبي فأظل أتمسّك بها لأنها ستحميني من الاندثار. أبحث عنها في أروقـــة ذاكرتي المغبشة... أرغب في أن أجسّدها ألوانا حيّة ناضبة لا تنطفىء ولا تمحوها غفلة مداهمة وبذلك تكون عصيّة على النسيان... لكـــنني كعادتي دائما لا ألفي غير البتر يسم أشيائي العزيزة على قلبي فيكلّـــلها بـــالوهن والعجز والاضمحلال... لكني لا أقبض على غير صـــدى لأغنـــيات غارقة في القدم تملأ الصمت الذي يطوّقني فأعزف عـــنها لأنهـــا ليست لي ما دامت قد وهبت نفسها لآخرين بعيدين في الزمن قريبين فيه إلى درجة أنّك تكاد تسمع هفهفة أنفاسهم العطرة... وهـــم خال منهم المكان لكنه يضج بوقع خطواتهم الدائبة وبأصواتهم القريـــبة إلى قلبك فلا تقدر أن تمسك نفسك عن أن تقبّلهم منشرحا كـــل صباحا وتدثرهم بحنانك إذا ما أسدل الليل على خطواتهم الحثيثة دائما ظلامه الصقيع.

كتـــب عـــلى كل أشيائي أن تأتي مبتورة... لا تولد إلاّ لكي تعيش حياتها موصومة بعاهة ناجمة عن تخلي عن إتمامها لسأمي ولأنني أصـــغّرها في عيني حتى تنفر عشرتي... هذا ليس الكلام الذي سيأتي لاحقا على لسان سعيد وهذه ليست أحاسيسه التي سيحدثكم عنها فهـــو، وإن كان يجعلني دائما أتغيّر من خلال رؤيته لكل ما يحيط بنا فأكتشـــف كـــثيرا مما لم يكن جليّا أمامي إلاّ أنني لا أحسّ بعمق ما يقوـــله هكذا جزافا، إذ أنني أتأثر لكون تلك الأشياء تموج بداخلي

وتـــئجّ لكـــنني لا أستطيع أن أعبّر عنها بالصيغة التي أرتضيها. رؤية سعيد تدفع بي إلى أن أجوس مناطق أخرى ليست غريبة عن دواخلي وهو الذي يشرّع لي أبوابها إذ يجب أن لا أنكر أنني أعجز في أحايين كـــثيرة عـــن أن أكون هذه الأنا التي تملؤني... زمني... هب لي من لدنـــك أغنية الأغنيات تروي ظمئي المشبع بالتوق إلى الانهمار لآلىء تهفو لها الروح الولهى... أيامي الباقية من حياة لم تكن البتّة ملكي... هبي لي من رحابك الشاسعة المعطاء أنشودة منفلتة من عقال الزمن لا تصـــفّدها هواتـــف قديمة مهما كانت عزيزة على قلبي ولايمكن أن تتآكل أو يمحيها الضياع... أريدها أن تكون لي... أغنيتي التي يكتب لهـــا البقاء... أريدها أن تكون صوتي أنا مهما كانت أصوات الذين أحبّهم عالية... عالية... عالية تعجّ في أعماقي.

أقـــتفي أثر عثمان كي أوصيه بأن يحدث الأحبّة بحنيني... أريد مـــنه أن يـــبلّغ رشيد أنني الليلة سأكون صوته بعد أن كنت منصتة مطواعـــا لهواتفه الغريبة وبعد أن قرأت أخيرا أوراقه المنسيّة... أردت أن يطلـــب مـــنه أن لا يغضب مني لأنني سأكشف أسراره وأحدث الجمـــيع بمـــا سأطلع عليه في أوراقه المنسية التي لم أحمل معي غيرها الليلة... بحثت عن عثمان لكنه اختفى فجأة وابتلعه الظلام.

انكسّر البرواز فجأة يا صديقي

ضحكتك السليبّة العذراء

أضحت شتاتا يضيق به الفضاء

وأنت

وأنا

نسينا الفرح المسبيّ

وضيّعنا في رحابه الممتدّة النسيان

إذ أن بيتنا العتيق قد تهدّم

وشيّد على أطلاله البوم الخراب مسكننا البعيد يا صديقي التائه

عبّأه الفراغ والصدى

وأنت ناء

وأنا غريبة

أراوغ النسيان في مدن النحاس

كي لا أموت دائما

كي أحيا قليلا تافها

في بيت لا ترفعه أواس

بي حاجة وجيعة

يا صديقي للبكاء

غير أنه ما عاد في العيون

ماء مالح يرويها

ما عاد هناك وقت شاسع محايد

يهب القلب المقرّح

لذّة راحة البكاء

ذهب عثمان... جاء من الفراغ كي يعود إليه... لا تصطدم نظراتي بغير الوحشة توشي الشارع الطويل... أترى هذه المدينة المقفرة هي التي أفنيت عمري في حبها؟ أتراني أستحق أن أعيش مدماة في تجاويفها السحيقة؟

* * *

جناحها الريح... وغيمة ماطرة

سيرة المرأة الغائبة

رواية

آسية السخيري

• كاتبة من تونس

تسع سنوات مرّت على أوّل لقاء لي بك يا امرأة الموانئ المهجورة... يا امرأة أعشقها من الوريد إلى الوريد... يا امرأة يحدث أحياناً أن أكرهها كما كرهت أمي إذ سلّمتني راضية لقمة هنيئة لليتم والفجيعة.

تسع سنوات وأنا أعيشك... أنثى تيمّمين بتحدٍّ في لحظة معطاء منيرة أحلام العالم كلّها وفي اللحظة ذاتها تنقلبين إلى لبؤة هائجة أفلتت من قبضتها المتشنّجة جل الأماني. كيف يمكنك بكل تلك البساطة أن تنقلبي من حالة الامتلاء إلى حالة الخواء المدمّر المرعب.

خائف أنا عليك من هول الانفجار يا امرأة الجنون المرّ ... يا امرأة تشتعل من رماد الروح وتضيء في تخوم العتمة... يا امرأة تورق مهما كانت الفصول خريفا ممتدّاً... يا أمرأة مقدّسة تتطهّر في أدغال الخطيئة والرفض.

مكتبة مدبولي
adbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
هاتف: 5756421 – فاكس: 2854
@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com